(٦١) سورة الصف مدنية
وآياتها أربع عشرة

● سورة الصف هي إحدى السور المدنية التي تُعنى بالأحكام التشريعية ، وهذه السورة تتحدث عن موضوع « القتال » وجهاد أعداء الله ، والتضحية في سبيل الله لإعزاز دينه وإعلاء كلمته. وعن التجارة الرابحة التي بها سعادة المؤمن في الدنيا والآخرة ولكنّ المحور الذي تدور عليه السورة هو القتال ، ولهذا سميت سورة الصف .

● **ابتدأت** السورة الكريمة بعد تسبيح الله وتحميده بتحذير المؤمنين من إخلاف الوعد وعدم الوفاء بما التزموا به ﴿ سبّح لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم . يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون﴾

● **ثم تحدثت** عن قتال أعداء الله بشجاعة المؤمن وبسالته لأنه يقاتل من أجل غرض نبيل وهو رفع منار الحق وإعلاء كلمة الله ﴿ إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص﴾

● **وتناولت** السورة بعد ذلك موقف اليهود من دعوة موسى وعيسى عليهما السلام وما أصابهما من أذى في سبيل الله وذلك تسلية لرسول الله ﷺ فيما ناله من كفار مكة ﴿ وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني .. ﴾

● **وتحدثت** السورة عن سنة الله في نصر دينه وأنبيائه وأوليائه

وضربت المثل للمشركين في عزمهم على محاربة دين الله بمن يريد إطفاء نور الشمس بفمه الحقير ﴿ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله مُتمٌّ نوره ولو كره الكافرون . ﴾

● **ودعت** السورة المؤمنين إلى التجارة الرابحة وحرضتهم على الجهاد في سبيل الله بالنفس والتنفيس لينالوا السعادة الدائمة الكبيرة مع النصرة العاجلة في الدنيا ، وخاطبتهم باسلوب الترغيب والتشويق ﴿ يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارةٍ تنجيكم من عذاب أليم . تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله ... ﴾ الآيات .

● **وختمت** السورة بدعوة أهل الايمان إلى نصرة دين الرحمن ، كما فعل الحواريون أصحاب عيسى حين دعاهم إلى نصرة الله فاستجابوا ونصروا الحق والرسول ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله ؟ قال الحواريون نحن أنصار الله .. ﴾ وهكذا يتناسق البدء مع الختام في أبدع بيان وإحكام .

سورة الصف

[٩٣٢] أخرج الترمذي والحاكم وصححه(١) عن عبدالله بن سلاّم قال: قعدنا نفراً من أصحاب رسول الله [ﷺ] فتذاكرنا فقلنا: لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله لعملناه فأنزل الله: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢﴾(٢) فقرأها علينا رسول الله [ﷺ] حتى ختمها.

ك.. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس نحوه.

[٩٣٣] ك.. وأخرج عن أبي صالح قال: قالوا لو كنا نعلم أي الأعمال أحب إلى الله وأفضل فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ﴾(٣) الآية فكرهوا الجهاد فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢﴾(٤).

[٩٣٤] ك.. وأخرج ابن أبي حاتم من طريق علي عن ابن عباس نحوه.

[٩٣٥] ك.. وأخرج من طريق عكرمة عن ابن عباس وابن جرير عن الضحاك قال: أنزلت ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾(٥) في الرجل يقول في القتال ما لم يفعله من الضرب والطعن والقتل.

[٩٣٦] ك.. وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل أنها نزلت في توليهم يوم أحد.

[٩٣٧] ك.. وأخرج عن سعيد بن جبير قال: لما نزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

---

[٩٣٢] (١) ورواه الواحدي في أسباب النزول ص (٢٤٢) من طريق الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن عبدالله بن سلاّم.

(٢) سورة الصف: الآية (١و٢).

[٩٣٣] (٣) سورة الصف: الآية (١٠).

(٤) سورة الصف: الآية (٢).

[٩٣٥] (٥) سورة الصف: الآية (٢).

﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝١٠﴾[1] قال المسلمون لو علمنا ما هذه التجارة لأعطينا فيها الأموال والأهلين فنزلت: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾[2].

* * *

---

[٩٣٧] (١) سورة الصف: الآية (١٠).

(٢) سورة الصف: الآية (١٠).

سورة الصف

اربع عشرة آية مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝﴾

وجه التعلق بما قبلها هو أن في تلك السورة بيان الخروج جهادًا في سبيل الله وابتغاء مرضاته بقوله: ﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي﴾ [الممتحنة: ١] وفي هذه السورة بيان ما يحمل أهل الإيمان ويحثهم على الجهاد بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤] وأما الأول بالآخر، فكأنه قال: إن كان الكفرة بجهلهم يصفون لحضرتنا المقدسة بما لا يليق بالحضرة، فقد كانت الملائكة وغيرهم من الإنس والجن يسبحون لحضرتنا، كما قال: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي شهد له بالربوبية والوحدانية وغيرهما من الصفات الحميدة جميع ما في السموات والأرض و﴿الْعَزِيزُ﴾ من عز إذا غلب، وهو الذي يغلب على غيره أي شيء كان ذلك الغير، ولا يمكن أن يغلب عليه غيره و﴿الْحَكِيمُ﴾ من حكم على الشيء إذا قضى عليه، وهو الذي يحكم على غيره، أي شيء كان ذلك الغير، ولا يمكن أن يحكم عليه غيره، فقوله: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ يدل على الربوبية والوحدانية إذن، ثم إنه تعالى قال في البعض من السور: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ [الحديد: ١، الحشر: ١]، وفي البعض: ﴿يُسَبِّحُ﴾ [الجمعة: ١، التغابن: ١]، وفي البعض: ﴿سَبِّحِ﴾ [الأعلى: ١] بصيغة الأمر، ليعلم أن تسبيح حضرة الله تعالى دائم غير منقطع لما أن الماضي يدل عليه في الماضي من الزمان، والمستقبل يدل عليه في المستقبل من الزمان، والأمر يدل عليه في الحال، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ منهم من قال: هذه الآية في حق جماعة من المؤمنين، وهم الذين أحبوا أن يعملوا بأحب الأعمال إلى الله، فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ﴾ [الصف: ١٠] الآية و﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ﴾ [الصف: ٤] فأحبوا الحياة وتولوا يوم أحد فأنزل الله تعالى: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ وقيل في حق من يقول: قاتلت ولم يقاتل، وطعنت ولم يطعن، وفعلت ولم يفعل، وقيل: إنها في حق أهل النفاق في القتال، لأنهم تمنوا القتال، فلما أمر الله تعالى به قالوا: ﴿لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ﴾ [النساء: ٧٧] وقيل: إنها في حق كل مؤمن، لأنهم قد اعتقدوا الوفاء بما وعدهم الله به من الطاعة والاستسلام والخضوع والخشوع

فإذا لم يوجد الوفاء بما وعدهم خيف عليهم في كل زلة أن يدخلوا في هذه الآية ثم في هذه الجملة مباحث:

الأول: قال تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الحديد: ١، الحشر: ١] في أول هذه السورة، ثم قاله تعالى في أول سورة أخرى، وهذا هو التكرار، والتكرار عيب، فكيف هو؟ فنقول: يمكن أن يقال: كرره ليعلم أنه في نفس الأمر غير مكرر لأن ما وجد منه التسبيح عند وجود العالم بإيجاد الله تعالى فهو غير ما وجد منه التسبيح بعد وجود العالم، وكذا عند وجود آدم وبعد وجوده.

الثاني: قال: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ولم يقل: سبح لله السموات والأرض وما فيهما، مع أن في هذا من المبالغة ما ليس في ذلك؟ فنقول: إنما يكون كذلك إذا كان المراد من التسبيح، التسبيح بلسان الحال مطلقًا، أما إذا كان المراد هو التسبيح المخصوص فالبعض يوصف كذا، فلا يكون كما ذكرتم.

الثالث: قال صاحب الكشاف: ﴿لِمَ﴾ هي لام الإضافة داخلة على ما الاستفهامية كما دخل عليها غيرها من حروف الجر في قولك: بم وفيم وعم ومم، وإنما حذفت الألف لأن (مَا) والحرف كشيء واحد، وقد وقع استعمالها في كلام المستفهم، ولو كان كذلك لكان معنى الاستفهام واقعًا في قوله تعالى: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ والاستفهام من الله تعالى محال وهو عالم بجميع الأشياء، فنقول: هذا إذا كان المراد من الاستفهام طلب الفهم، أما إذا كان المراد إلزام من أعرض عن الوفاء بما وعد أو أنكر الحق وأصر على الباطل فلا.

قوله تعالى: ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤﴾

والمقت هو البغض، ومن استوجب مقت الله لزمه العذاب، قال صاحب الكشاف: المقت أشد البغض وأبلغه وأفحشه، وقال الزجاج: ﴿أَن﴾ في موضع رفع و: ﴿مَقْتًا﴾ منصوب على التمييز، والمعنى: كبر قولكم ما لا تفعلون مقتًا عند الله، وهذا كقوله تعالى: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾ [الكهف: ٥].

قرأ زيد بن علي: (يُقَاتَلون) بفتح التاء، وقرئ (يقتلون) أن يصفون صفًّا، والمعنى يصفون أنفسهم عند القتال كأنهم بنيان مرصوص، قال الفراء: مرصوص بالرصاص، يقال: رصصت البناء إذا لاءَمتُ بينه وقاربت حتى يصير كقطعة واحدة، وقال الليث: يقال: رصصت البناء إذا ضممته، والرص انضمام الأشياء بعضها إلى بعض، وقال ابن عباس: يوضع الحجر على الحجر ثم يرص بأحجار صغار ثم يوضع اللبن عليه فتسميه أهل مكة المرصوص، وقال أبو إسحاق: أعلم الله تعالى أنه يحب من يثبت في الجهاد ويلزم مكانه كثبوت البناء المرصوص، وقال:

ويجوز أن يكون على أن يستوي شأنهم في حرب عدوهم حتى يكونوا في اجتماع الكلمة، وموالاة بعضهم بعضًا كالبنيان المرصوص، وقيل: ضرب هذا المثل للثبات: يعني إذا اصطفوا ثبتوا كالبنيان المرصوص الثابت المستقر، وقيل: فيه دلالة على فضل القتال راجلًا، لأن العرب يصطفون على هذه الصفة، ثم المحبة في الظاهر على وجهين: أحدهما: الرضا عن الخلق وثانيهما: الثناء عليهم بما يفعلون، ثم ما وجه تعلق الآية بما قبلها وهو قوله تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن﴾ نقول تلك الآية مذمة المخالفين في القتال وهم الذين وعدوا بالقتال ولم يقاتلوا، وهذه الآية محمدة الموافقين في القتال وهم الذين قاتلوا في سبيل الله وبالغوا فيه.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٦ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧﴾

معناه اذكر لقومك هذه القصة، و ﴿إِذْ﴾ منصوب بإضمار اذكر أي حين قال لهم: ﴿تُؤْذُونَنِى﴾ وكانوا يؤذونه بأنواع الأذى قولًا وفعلًا، فقالوا: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣]، ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾ [البقرة: ٦١]وقيل: قد رموه بالأدرة، وقوله تعالى: ﴿وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ في موضع الحال، أي تؤذونني عالمين علمًا قطعيًا أني رسول الله وقضية علمكم بذلك موجبة للتعظيم والتوقير، وقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟﴾ أي مالوا إلى غير الحق ﴿أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ أي أمالها عن الحق، وهو قول ابن عباس وقال مقاتل: ﴿زَاغُوٓا۟﴾ أي عدلوا عن الحق بأبدانهم ﴿أَزَاغَ ٱللَّهُ﴾ أي أمال الله قلوبهم عن الحق وأضلهم جزاء ما عملوا، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ قال أبو إسحاق معناه: والله لا يهدي من سبق في علمه أنه فاسق، وفي هذا تنبيه على عظيم إيذاء الرسول ﷺ حتى إنه يؤدي إلى الكفر وزيغ القلوب عن الهدى ﴿وَقَد﴾ معناه التوكيد كأنه قال: وتعلمون علمًا يقينيًا لا شبهة لكم فيه.

قوله: ﴿أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ أي اذكروا أني رسول الله أرسلت إليكم بالوصف الذي وصفت به في التوراة ومصدقًا بالتوراة وبكتب الله وبأنبيائه جميعًا ممن تقدم وتأخر ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ﴾ يصدق بالتوراة على مثل تصديقي، فكأنه قيل له: ما اسمه؟ فقال: اسمه أحمد، فقوله: ﴿يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ جملتان في موضع الجر لأنهما صفتان للنكرة التي هي رسول، وفي ﴿بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ﴾ قراءتان تحريك الياء بالفتح على الأصل، وهو الاختيار عند الخليل وسيبويه في كل موضع تذهب فيه الياء لالتقاء ساكنين وإسكانها، كما في قوله تعالى: ﴿وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ﴾ [نوح: ٢٨]

فمن أسكن في قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِى ٱسۡمُهُۥٓ﴾ حذف الياء من اللفظ لالتقاء الساكنين، وهما الياء والسين من اسمه، قاله المبرد وأبو علي، وقوله تعالى: ﴿أَحۡمَدُ﴾ يحتمل معنيين: أحدهما: المبالغة في الفاعل، يعني أنه أكثر حمدًا لله من غيره، وثانيهما: المبالغة من المفعول، يعني أنه يُحمدُ بما فيه من الإخلاص والأخلاق الحسنة أكثر مما يحمد غيره.

ولنذكر الآن بعض ما جاء به عيسى عليه السلام، بمقدم سيدنا محمد عليه السلام في الإنجيل في عدة مواضع أولها: في الإصحاح الرابع عشر من إنجيل يوحنا هكذا: (وَأَنَا أَطْلُبُ لَكُمْ إِلَيَّ أَبِي حَتَّى يَمْنَحَكُمْ، وَيُعْطِيَكُمُ الْفَارَقَلِيطَ حَتَّى يَكُونَ مَعَكُمْ إِلَى الْأَبَدِ، وَالْفَارَقَلِيطُ هُوَ رُوحُ الْحَقِّ الْيَقِينِ) هذا لفظ الإنجيل المنقول إلى العربي، وذكر في الإصحاح الخامس عشر هذا اللفظ: (وَأَمَّا الْفَارَقَلِيطُ رُوحُ الْقُدُسِ يُرْسِلُهُ أَبِي بَاسِمِي، وَيُعَلِّمُكُمْ وَيَمْنَحُكُمْ جَمِيعَ الْأَشْيَاءِ، وَهُوَ يُذَكِّرُكُمْ مَا قُلْتُ لَكُمْ) ثم ذكر بعد ذلك بقليل: (وَإِنِّي قَدْ خَبَّرْتُكُمْ بِهَذَا قَبْلَ أَنْ يَكُونَ حَتَّى إِذَا كَانَ ذَلِكَ تُؤْمِنُونَ)، وثانيها: ذكر في الإصحاح السادس عشر هكذا: (وَلَكِنْ أَقُولُ لَكُمُ الْآنَ حَقًّا يَقِينًا انْطِلَاقِي عَنْكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ، فَإِنْ لَمْ أَنْطَلِقْ عَنْكُمْ إِلَى أَبِي لَمْ يَأْتِكُمُ الْفَارَقَلِيطُ، وَإِنِ انْطَلَقْتُ أَرْسَلْتُهُ إِلَيْكُمْ، فَإِذَا جَاءَ هُوَ يُفِيدُ أَهْلَ الْعَالَمِ، وَيُدِينُهُمْ وَيَمْنَحُهُمْ وَيُوقِفُهُمْ عَلَى الْخَطِيئَةِ وَالْبِرِّ وَالدِّينِ) وثالثها: ذكر بعد ذلك بقليل هكذا: (فَإِنَّ لِي كَلَامًا كَثِيرًا أُرِيدُ أَنْ أَقُولَهُ لَكُمْ، وَلَكِنْ لَا تَقْدِرُونَ عَلَى قَبُولِهِ وَالِاحْتِفَاظِ بِهِ، وَلَكِنْ إِذَا جَاءَ رُوحُ الْحَقِّ إِلَيْكُمْ يُلْهِمُكُمْ وَيُؤَيِّدُكُمْ بِجَمِيعِ الْحَقِّ، لِأَنَّهُ لَيْسَ يَتَكَلَّمُ بِدْعَةً مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ) هذا ما في الإنجيل، فإن قيل: المراد بفارقليط إذا جاء يرشدهم إلى الحق ويعلمهم الشريعة، هو عيسى يجيء بعد الصلب؟ نقول: ذكر الحواريون في آخر الإنجيل أن عيسى لما جاء بعد الصلب ما ذكر شيئًا من الشريعة، وما علمهم شيئًا من الأحكام، وما لبث عندهم إلا لحظة، وما تكلم إلا قليلاً، مثل أنه قال: (أَنَا الْمَسِيحُ فَلَا تَظُنُّونِي مَيِّتًا، بَلْ أَنَا نَاجٍ عِنْدَ اللَّهِ نَاظِرٌ إِلَيْكُمْ، وَإِنِّي مَا أُوحِي بَعْدَ ذَلِكَ إِلَيْكُمْ) فهذا تمام الكلام، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ قيل: هو عيسى، وقيل: هو محمد، ويدل على أن الذي جاءهم بالبينات جاءهم بالمعجزات والبينات التي تبين أن الذي جاء به إنما جاء به من عند الله، وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ أي ساحر مبين.

وقوله: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾ أي من أقبح ظلمًا ممن بلغ افتراؤه المبلغ الذي يفتري على الله الكذب وأنهم قد علموا أن ما نالوه من نعمة وكرامة فإنما نالوه من الله تعالى، ثم كفروا به وكذبوا على الله وعلى رسوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي لا يوافقهم الله للطاعة عقوبة لهم.

وفي الآية بحث: وهو أن يقال: بم انتصب ﴿مُصَدِّقٗا﴾ و﴿وَمُبَشِّرَۢا﴾ أبما في الرسول من معنى الإرسال أم ﴿إِلَيۡكُم﴾؟ نقول: بل بمعنى الإرسال لأن ﴿إِلَيۡكُم﴾ صلة للرسول.

قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾

﴿لِيُطْفِـُٔواْ﴾ أي أن يطفئوا وكأن هذه اللام زيدت مع فعل الإرادة تأكيدًا له لما فيها من معنى الإرادة في قولك: جئتك لإكرامك، كما زيدت اللام في لا أبا لك، تأكيدًا لمعنى الإضافة في أباك، وإطفاء نور الله تعالى بأفواههم، تهكم بهم في إرادتهم إبطال الإسلام بقولهم في القرآن: ﴿هَٰذَا سِحْرٌ﴾ [الصف: ٦] مثلت حالهم بحال من ينفخ في نور الشمس بفيه ليطفئه، كذا ذكره في الكشاف، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾ قرئ بكسر الراء على الإضافة، والأصل هو التنوين، قال ابن عباس: يظهر دينه، وقال صاحب الكشاف: متم الحق ومبلغه غايته، وقيل: دين الله، وكتاب الله، ورسول الله، وكل واحد من هذه الثلاثة بهذه الصفة لأنه يظهر عليهم من الآثار وثانيها: أن نور الله ساطع أبدًا وطالع من مطلع لا يمكن زواله أصلاً وهو الحضرة القدسية، وكل واحد من الثلاثة كذلك، وثالثها: أن النور نحو العلم، والظلمة نحو الجهل، أو النور الإيمان يخرجهم من الظلمات إلى النور، أو الإسلام هو النور، أو يقال: الدين وضع إلهي سائق لأولي الألباب إلى الخيرات باختيارهم المحمود وذلك هو النور، والكتاب هو المبين قال تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ [الشعراء: ٢] فالإبانة والكتاب هو النور، أو يقال: الكتاب حجة لكونه معجزًا، والحجة هو النور، فالكتاب كذلك، أو يقال في الرسول: إنه النور، وإلا لما وصف بصفة كونه رحمة للعالمين، إذ الرحمة بإظهار ما يكون من الأسرار وذلك بالنور، أو نقول: إنه هو النور، لأنه بواسطته اهتدى الخلق، أو هو النور لكونه مبينًا للناس ما نزل إليهم، والمبين هو النور، ثم الفوائد في كونه نورًا وجوه: منها: أنه يدل على علو شأنه وعظمة برهانه، وذلك لوجهين: أحدهما: الوصف بالنور وثانيهما: الإضافة إلى الحضرة، ومنها: أنه إذا كان نورًا من أنوار الله تعالى كان مشرقًا في جميع أقطار العالم، لأنه لا يكون مخصوصًا ببعض الجوانب، فكان رسولاً إلى جميع الخلائق، لما روي عنه ﷺ: «بُعِثْتُ إِلَى الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ»(١) فلا يوجد شخص من الجن والإنس إلا ويكون من أمته إن كان مؤمنًا فهو من أمة المتابعة، وإن كان كافرًا فهو من أمة الدعوة.

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد في (مسنده) (٥/ ١٤٥) عن ابن إسحاق... به وأبو داود في كتاب (الصلاة) باب (المواضع التي لا يجوز فيها الصلاة) (١/ ٢٤٠) حديث رقم (٤٨٩) من طريق عبيد بن عمير... به والدارمي في كتاب (السير) باب (الغنيمة لا تحل لأحد قبلنا) (٢/ ٨٧) حديث رقم (٢٤٦٧) والحديث متفق عليه من رواية جابر بن عبد الله في البخاري كتاب (التيمم) باب (حديث نزول آية التيمم) (١/ ٥١٩) حديث رقم (٧٣٥) ومسلم في كتاب (المساجد) باب (المقدمة) (١/ ٣/ ٣٧٠).

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي اليهود والنصارى وغيرهم من المشركين، وقوله: ﴿بِٱلْهُدَىٰ﴾ لمن اتبعه ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ قيل: الحق هو الله تعالى، أي دين الله، وقيل: نعت للدين، أي والدين هو الحق، وقيل: الذي يحق أن يتبعه كل أحد و﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ يريد الإسلام، وقيل: ليظهره، أي الرسول ﷺ بالغلبة وذلك بالحجة **وهاهنا مباحث:**

الأول: ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾ والتمام لا يكون إلا عند النقصان، فكيف نقصان هذا النور؟ فنقول إتمامه بحسب النقصان في الأثر، وهو الظهور في سائر البلاد من المشارق إلى المغارب، إذ الظهور لا يظهر إلا بالإظهار وهو الإتمام، يؤيده قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣] وعن أبي هريرة: أن ذلك عند نزول عيسى من السماء، قال مجاهد. **الثاني:** قال هاهنا: ﴿مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾ وقال في موضع آخر: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ [النور: ٣٥] وهذا عين ذلك أو غيره؟ نقول: هو غيره، لأن نور الله في ذلك الموضع هو الله تعالى عند أهل التحقيق، وهناك هو الدين أو الكتاب أو الرسول. **الثالث:** قال في الآية المتقدمة: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ وقال في المتأخرة: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ فما الحكمة فيه؟ فنقول: إنهم أنكروا الرسول، وما أنزل إليه وهو الكتاب، وذلك من نعم الله، والكافرون كلهم في كفران النعم، فلهذا قال: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ ولأن لفظ الكافر أعم من لفظ المشرك، والمراد من الكافرين هاهنا اليهود والنصارى والمشركون، وهنا ذكر النور وإطفاءه، واللائق به الكفر لأنه الستر والتغطية، لأن من يحاول الإطفاء إنما يريد الزوال، وفي الآية الثانية ذكر الرسول والإرسال ودين الحق، وذلك منزلة عظيمة للرسول عليه السلام، وهي اعتراض على الله تعالى كما قال:

أَلاَ قُلْ لِمَنْ ظَلَّ لِي حَاسِدًا ... أَتَدْرِي عَلَى مَنْ أَسَأْتَ الأَدَبْ (١)
أَسَأْتَ عَلَى اللّٰه فِي فِعْلِهِ ... كَأَنَّهُ لم تعرض لِي مَا وَهَبْ

والاعتراض قريب من الشرك، ولأن الحاسدين للرسول عليه السلام، كان أكثرهم من قريش وهم المشركون، ولما كان النور أعم من الدين والرسول، لا جرم قابله بالكافرين الذين هم جميع مخالفي الإسلام، والإرسال والرسول والدين أخص من النور قابله بالمشركين الذين هم أخص من الكافرين.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾

اعلم أن قوله تعالى: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾ في معنى الأمر عند الفراء، يقال: هل أنت ساكت أي اسكت

---

(١) هذا البيت للشاعر منصور بن إسماعيل الفقيه وهو منصور بن إسماعيل الفقيه؟ - ٣٠٦هـ/ ؟ - ٩١٨م شاعر وفقيه شافعي، ضرير، أصله من رأس العين (بالجزيرة) سافر إلى بغداد في شبابه، ومدح بها الخليفة والمعتز ثم سكن مصر وتوفي بها. وكان خبيث اللسان في الهجو، ونقل عنه كلام في الدين، وشهد عليه بذلك شاهد، فقال القاضي (أبو عبيد) إن شهد عليه ثان ضربت عنقه فاستولى عليه الخوف ومات.

وبيانه: أن هل، بمعنى الاستفهام، ثم يتدرج إلى أن يصير عرضًا وحثًا، والحث كالإغراء، والإغراء أمر، وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ﴾ هي التجارة بين أهل الإيمان وحضرة الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١] دل عليه ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ والتجارة عبارة عن معاوضة الشيء بالشيء، وكما أن التجارة تنجي التاجر من محنة الفقر، ورحمة الصبر على ما هو من لوازمه، فكذلك هذه التجارة وهي التصديق بالجنان والإقرار باللسان، كما قيل في تعريف الإيمان فلهذا قال بلفظ التجارة، وكما أن التجارة في الربح والخسران، فكذلك في هذا، فإن من آمن وعمل صالحًا فله الأجر، والربح الوافر، واليسار المبين، ومن أعرض عن العمل الصالح فله التحسر والخسران المبين، وقوله تعالى: ﴿تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ قرئ مخففًا ومثقلاً، و﴿تُؤْمِنُونَ﴾ استئناف، كأنهم قالوا: كيف نعمل؟ فقال: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ وهو خبر في معنى الأمر، ولهذا أجيب بقوله: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الصف: ١٢] وقوله تعالى: ﴿وَتُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ والجهاد بعد هذين الوجهين ثلاثة، جهاد فيما بينه وبين نفسه، وهو قهر النفس، ومنعها عن اللذات والشهوات، وجهاد فيما بينه وبين الخلق، وهو أن يدع الطمع منهم، ويشفق عليهم ويرحمهم وجهاد فيما بينه وبين الدنيا وهو أن يتخذها زادًا لمعاده فتكون على خمسة أوجه، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ يعني الذي أمرتم به من الإيمان بالله تعالى والجهاد في سبيله خير لكم من أن تتبعوا أهواءكم ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي إن كنتم تنتفعون بما علمتم فهو خير لكم، **وفي الآية مباحث:**

الأول: لم قال: ﴿تُؤْمِنُونَ﴾ بلفظ الخبر؟ نقول: للإيذان بوجوب الامتثال، عن ابن عباس قالوا: لو نعلم أحب الأعمال إلى الله تعالى لعملنا، فنزلت هذه الآية، فمكثوا ما شاء الله يقولون: يا ليتنا نعلم ما هي؟ فدلهم الله عليها بقوله: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾.

الثاني: ما معنى: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ نقول: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه خير لكم كان خيرًا لكم، وهذه الوجوه للكشاف، وأما الغير فقال: الخوف من نفس العذاب لا من العذاب الأليم، إذ العذاب الأليم هو نفس العذاب مع غيره، والخوف من اللوازم كقوله تعالى: ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥] ومنها أن الأمر بالإيمان كيف هو بعد قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فنقول: يمكن أن يكون المراد من هذه الآية المنافقين، وهم الذين آمنوا في الظاهر، ويمكن أن يكون أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى فإنهم آمنوا بالكتب المتقدمة فكأنه قال: يا أيها الذين آمنوا بالكتب المتقدمة آمنوا بالله وبمحمد رسول الله، ويمكن أن يكون أهل الإيمان كقوله: ﴿فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا﴾ [التوبة: ١٢٤]، ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا﴾ [الفتح: ٤] وهو الأمر بالثبات كقوله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [إبراهيم: ٢٧] وهو الأمر بالتجدد كقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النساء: ١٣٦] وفي قوله ﷺ: «من جدد وُضوءَهُ فَكَأَنَّمَا جَدَّدَ إِيمَانَهُ»(١)، ومنها: أن رجاء النجاة كيف هو إذا آمن بالله

(١) لم أجده.

ورسوله، ولم يجاهد في سبيل الله، وقد علق بالمجموع، ومنها أن هذا المجموع وهو الإيمان بالله ورسوله والجهاد بالنفس والمال في سبيل الله خبر في نفس الأمر.

قوله تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾

اعلم أن قوله تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ جواب قوله: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الصف: ١١] لما أنه في معنى الأمر، كما مر فكأنه قال: آمنوا بالله وجاهدوا في سبيل الله يغفر لكم، وقيل جوابه: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [الصف: ١١] وجزم: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ﴾ لما أنه ترجمة: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ ومحله جزم، كقوله تعالى: ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن﴾ [المنافقون: ١٠] لأن محل ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ جزم على قوله: ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ﴾ وقيل: جزم ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ﴾ بهل، لأنه في معنى الأمر، وقوله تعالى: ﴿وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ إلى آخر الآية، من جملة ما قدم بيانه في التوراة، ولا يبعد أن يقال: إن الله تعالى رغبهم في هذه الآية إلى مفارقة مساكنهم وإنفاق أموالهم والجهاد، وهو قوله: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ﴾ وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ يعني ذلك الجزاء الدائم هو الفوز العظيم، وقد مر، وقوله تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا﴾ أي تجارة أخرى في العاجل مع ثواب الآجل، قال الفراء: وخصلة أخرى تحبونها في الدنيا مع ثواب الآخرة، وقوله تعالى: ﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ هو مفسر للأخرى، لأنه يحسن أن يكون: ﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ مفسرًا للتجارة إذ النصر لا يكون تجارة لنا بل هو ربح للتجارة، وقوله تعالى: ﴿وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ أي عاجل وهو فتح مكة، وقال الحسن: هو فتح فارس والروم، وفي ﴿تُحِبُّونَهَا﴾ شيء من التوبيخ على محبة العاجل.

ثم في الآية مباحث:

الأول: قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ عطف على ﴿تُؤْمِنُونَ﴾ [الصف: ١١] لأنه في معنى الأمر، كأنه قيل: آمنوا وجاهدوا يثبكم الله وينصركم، وبشر يا رسول الله المؤمنين بذلك. ويقال أيضًا: بم نصب من قرأ: (نصرًا من الله وفتحًا قريبًا)، فيقال: على الاختصاص، أو على تنصرون نصرًا، ويفتح لكم فتحًا، أو على يغفر لكم، ويدخلكم ويؤتكم خيرًا، ويرى نصرًا وفتحًا، هكذا ذكر في الكشاف.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾

قوله: ﴿كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾ أمر بإدامة النصرة والثبات عليه، أي ودوموا على ما أنتم عليه من

النصرة، ويدل عليه قراءة ابن مسعود: (كونوا أنتم أنصار الله) فأخبر عنهم بذلك، أي أنصار دين الله وقوله: ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ﴾ أي انصروا دين الله مثل نصرة الحواريين لما قال لهم: ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ قال مقاتل: يعني من يمنعني من الله، وقال عطاء: من ينصر دين الله، ومنهم من قال: أمر الله المؤمنين أن ينصروا محمدًا ﷺ كما نصر الحواريون عيسى عليه السلام، وفيه إشارة إلى أن النصر بالجهاد لا يكون مخصوصًا بهذه الأمة، والحواريون أصفياؤه، وأول من آمن به، وكانوا اثني عشر رجلًا، وحواري الرجل صفيه وخلصاؤه من الحَوَر، وهو البياض الخالص، وقيل: كانوا قصارين يحورون الثياب، أي يبيضونها، وأما الأنصار فعن قتادة: أن الأنصار كلهم من قريش: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وحمزة، وجعفر، وأبو عبيدة ابن الجراح، وعثمان بن مظعون، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وعثمان بن عوف، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام **ثم في الآية مباحث:**

البحث الأول: التشبيه محمول على المعنى، والمراد كونوا كما كان الحواريون.

الثاني: ما معنى قوله: ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾؟ نقول: يجب أن يكون معناه مطابقًا لجواب الحواريين والذي يطابقه أن يكون المعنى: من عسكري متوجهًا إلى نصرة الله، وإضافة ﴿أَنصَارِيٓ﴾ خلاف إضافة ﴿أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ لما أن المعنى في الأول: الذين ينصرون الله، وفي الثاني: الذين يختصون بي ويكونون معي في نصرة الله.

الثالث: أصحاب عيسى قالوا: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ وأصحاب محمد لم يقولوا هكذا، نقول: خطاب عيسى عليه السلام بطريق السؤال فالجواب لازم، وخطاب محمد ﷺ بطريق الإلزام، فالجواب غير لازم، بل اللازم هو امتثال هذا الأمر، وهو قوله تعالى: ﴿كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾.

قال ابن عباس: يعني الذين آمنوا في زمن عيسى عليه السلام، والذين كفروا كذلك، وذلك لأن عيسى عليه السلام لما رفع إلى السماء تفرقوا ثلاث فرق، فرقة قالوا: كان الله فارتفع، وفرقة قالوا: كان ابن الله فرفعه إليه، وفرقة قالوا: كان عبد الله ورسوله فرفعه إليه، وهم المسلمون، واتبع كل فرقة منهم طائفة من الناس، واجتمعت الطائفتان الكافرتان على الطائفة المسلمة فقتلوهم وطردوهم في الأرض، فكانت الحالة هذه حتى بعث الله محمدًا ﷺ فظهرت المؤمنة على الكافرة فذلك قوله تعالى: ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾، وقال مجاهد: ﴿فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾ يعني من اتبع عيسى، وهو قول المقاتلين، وعلى هذا القول معنى الآية: أن من آمن بعيسى ظهروا على من كفروا به فأصبحوا غالبين على أهل الأديان، وقال إبراهيم: أصبحت حجة من آمن بعيسى ظاهرة بتصديق محمد ﷺ وأن عيسى كلمة الله وروحه، قال الكلبي: ظاهرين بالحجة، والظهور بالحجة هو قول زيد بن علي رضي الله عنه، والله أعلم بالصواب والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

سورة الصَّفّ

مَدَنِيَّةٌ في قول الجميع، فيما ذكر الماورديُّ[1]. وقيل: إنَّها مكِّيَّة، ، ذكره النحَّاس[2] عن ابن عباس. وهي أربع عشرة آية.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١﴾

تقدَّم[3].

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ روى الدَّارِمِيُّ أبو محمد في «مسنده»: أخبرنا محمد بنُ كثير، عن الأوزاعيِّ، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة، عن عبد الله بن سَلاَم قال: قَعَدنا نَفَرٌ من أصحابِ رسول الله ﷺ فتذاكرنا فقلنا: لو نعلم أيّ الأعمال أحبّ إلى الله تعالى لعملناه، فأنزل الله تعالى ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ . يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ حتى ختمها.

قال عبد الله: فقرأها علينا رسولُ الله ﷺ حتى ختمها. قال أبو سلمة: فقرأها علينا ابن سَلاَم. قال يحيى: فقرأها علينا أبو سلمة، وقرأها علينا يحيى، وقرأها علينا

---

(١) في النكت والعيون ٥/ ٥٢٧ .

(٢) في الناسخ والمنسوخ ٣/ ١٢٢ .

(٣) ص٢٣٥ من هذا الجزء.

الأوزاعيُّ، وقرأها علينا محمد[١]. وقال ابن عباس: قال عبد الله بن رَوَاحة: لو علمنا أحبّ الأعمال إلى الله لعملناه، فلما نزل الجهاد كرهوه[٢].

وقال الكلبيُّ: قال المؤمنون: يا رسولَ الله، لو نعلم أحبَّ الأعمال إلى الله، لسارعنا إليها، فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فمكثوا زماناً يقولون: لو نعلم ما هي لاشتريناها بالأموال والأنفس والأهلين، فدلَّهم الله تعالى عليها بقوله: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ الآية. فابتُلُوا يوم أُحُد، ففرُّوا، فنزلت تعيِّرهم بترك الوفاء[٣].

وقال محمد بن كعب: لما أخبر الله تعالى نبيَّه ﷺ بثواب شهداء بدر، قالت الصحابة: اللَّهمَّ اشهد! لئن لقِينا قتالاً لَنُفرِغَنَّ فيه وُسْعَنا، ، ففرُّوا يوم أُحُد فعيَّرهم الله بذلك. وقال قتادة والضحَّاك: نزلت في قوم كانوا يقولون: نحن جاهدنا وأَبْلَيْنَا، ولم يفعلوا[٤].

وقال صُهيب: كان رجل قد آذى المسلمين يوم بدر وأنكاهم، فَقَتَلْتُه. فقال رجل:

(١) سنن الدارمي (٢٣٩٠)، وأخرجه أيضاً الترمذي (٣٣٠٩)، والواحدي في أسباب النزول ص٤٥٣ من طريقين، عن محمد بن كثير، به. إلا أنه ورد في أسباب النزول مختصراً. قال الترمذي: وقد خولف محمد بن كثير في إسناد هذا الحديث عن الأوزاعي. وروى ابن المبارك، عن الأوزاعي، عن يحيى بن أبي كثير، عن هلال بن أبي ميمونة، عن عطاء بن يسار، عن عبدالله بن سلام، أو عن أبي سلمة عن عبد الله بن سلام. اهـ. قلنا: هو عند أحمد (٢٣٧٨٩) من طريق يعمر، عن ابن المبارك، به.

وأخرجه ايضاً الحاكم ٢/ ٤٨٦-٤٨٧ من طريق الوليد بن مزيد وأبي إسحاق الفزاري، كلاهما عن الأوزاعي، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن عبد الله بن سلام، بنحوه. وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي. وقال ابن حجر في فتح الباري ٨/ ٤١٩ : وقد وقع لنا سماع هذه السورة [يعني الصف] مسلسلاً في حديث ذكر في أوله سبب نزولها، وإسناده صحيح قلَّ أن وقع في المسلسلات مثله مع مزيد علوه.

(٢) لم نقف عليه.

(٣) أسباب النزول للواحدي ص٤٥٤ دون عزو، وأخرجه ابن أبي حاتم في التفسير ١٠/ ٣٣٥٤ (١٨٨٨٥) عن مقاتل.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٣٣٧ ، وقول قتادة والضحاك أخرجه عنهما الطبري ٢٢/ ٦٠٨-٦٠٩ .

يا نبيَّ الله، إنِّي قتلت فلاناً، ففرح النبيُّ ﷺ بذلك. فقال عمر بن الخطاب وعبدالرحمن بن عَوْف: يا صُهيب، أما أخبرتَ رسولَ الله ﷺ أنَّك قتلتَ فلاناً! فإنَّ فلاناً انْتَحَل قَتْلَه، فأخبره فقال: «أكذلك يا أبا يحيى»؟ قال: نعم، واللهِ يارسول الله، فنزلت الآية في المنتحِل[1]. وقال ابن زيد: نزلت في المنافقين، كانوا يقولون للنبيِّ ﷺ وأصحابه: إن خرجتم وقاتلتم، خرجنا معكم وقاتلنا، فلما خرجوا، نكصوا عنهم وتخلفوا[2].

الثانية: هذه الآية توجب على كلِّ من ألزم نفسه عملاً فيه طاعة، أن يفيَ بها[3]. وفي «صحيح مسلم» عن أبي موسى[4] أنَّه بعث إلى قرَّاء أهل البصرة فدخل عليه ثلاثُ مئةِ رجلٍ قد قرؤوا القرآن، فقال: أنتم خيارُ أهل البصرة وقرَّاؤهم، فاتْلُوه ولا يَطُولَنَّ عليكم الأَمَدُ فتَقْسُوَ قلوبكم، كما قستْ قلوب من كان قَبلكم. وإنَّا كُنَّا نقرأ سورةً، كنَّا نُشبِّهها في الطُّول والشِّدَّة بـ «براءة» فأُنْسيتها، غيرَ أنِّي قد حفِظت منها: لو كان لابن آدم واديان من مال، لابتغى وادياً ثالثاً، ولا يَملأُ جوفَ ابنِ آدم إلا التراب. وكنا نقرأ سورة كنَّا نشبهها بإحدى المسُبِّحات فأُنسيتها، غير أنِّي حفظتُ منها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ فتُكْتَب شهادةً في أعناقكم فتُسألون عنها يوم القيامة. قال ابن العربيِّ[5]: وهذا كلُّه ثابت في الدِّين. أما قوله تعالى:

---

(١) الكشاف ٤/ ٩٦ ، وأورده أيضاً ابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٢٥٠ بنحوه، وعزاه ابن حجر في الكافي الشاف ص١٦٩ للثعلبي، ومعنى قوله: وأنكاهم. أي: أصاب منهم. اللسان(نكي).

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٣٣٧ ، وأخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٦٠٩ .

(٣) أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٤٤٢ .

(٤) برقم (١٠٥٠)، إلا أنه لم يرد فيه: عن أبي موسى، بل ورد فيه: عن أبي حرب بن أبي الأسود، عن أبيه [وهو: ظالم بن عمرو الدِّيْلي]، قال: بعث أبو موسى الأشعري إلى قراء أهل البصرة، ...الخبر.

(٥) في أحكام القرآن له ٤/ ١٧٨٧ ، وما بين حاصرتين منه، والكلام الآتي كلُّه منه إلى قوله: والصحيح عندي أن الوفاء به على كل حال إلا لعذر.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ فثابت في الدِّين لفظاً ومعنًى في هذه السورة.

وأما قوله: «شهادة في أعناقكم فتسألون عنها يوم القيامة» فمعنًى ثابتٌ في الدِّين؛ فإنَّ من التزم شيئاً، لزمه شرعاً. والملتَزَم على قسمين: أحدهما: النذر، وهو على قسمين، نذر تقرُّبٍ مبتدأ كقوله: للهِ عليَّ صلاة وصوم وصدقة، ونحوه من القُرَب. فهذا يلزم الوفاء به إجماعاً.

ونذرُ مباحٍ: وهو ما علِّق بشرطٍ رغبةً، كقوله: إن قَدِمَ غائبي، فعليَّ صدقة، أو عُلِّق بشرط رهبةً، كقوله: إن كفاني الله شرَّ كذا، فعليَّ صدقة.

فاختلف العلماء فيه، فقال مالك وأبو حنيفة: يلزمه الوفاء به[١]. وقال الشافعيُّ في أحد أقواله: إنَّهُ لا يلزمه الوفاء به[٢]. وعموم الآية حجَّة لنا؛ لأنَّها بمطلقها تتناول ذمَّ من قال مالا يفعله على أيِّ وجه كان من مطلق أو مقيَّد بشرط. وقد قال أصحابه: إنَّ النذر إنَّما يكون بما القصد منه القُرْبة مما هو من جنس القربة. وهذا وإن كان من جنس القربة، لكنه لم يُقصَد به القربة، وإنَّما قصد مَنْع نفسه عن فعل، أو الإقدام على فعل. قلنا: القُرب الشرعية مَشَقَّات[٣] وكُلَف، وإن كانت قربات. وهذا تكلُّف [في] التزام هذه القربة بمشقَّة، لجَلْبْ نفع أو دفع ضرٍّ، فلم يخرج عن سنن التكليف، ولازال عن قصد التقرُّب. قال ابن العربيِّ: فإن كان المقول منه وعداً، فلا يخلو أن يكون منوطاً بسببٍ، كقوله: إن تزوَّجتَ، أعنتُك بدينار، أو ابتعتَ حاجةَ كذا، أعطيتك [كذا]. فهذا لازم إجماعاً من الفقهاء. وإن كان وعداً مجرَّداً، فقيل: يلزم بتعلُّقه[٤]. وتعلَّقوا بسبب الآية، فإنَّه روي أنَّهم كانوا يقولون: لو نعلم أيَّ الأعمال أفضل أو أحبّ إلى الله، لعملناه، فأنزل الله تعالى هذه الآية. وهو حديث لا بأس به.

---

(١) النوادر والزيادات لابن أبي زيد القيرواني ٤/ ١٨ ، وبدائع الصنائع ٦/ ٣٥٥ .

(٢) الأم ٧/ ٦١ .

(٣) في أحكام القرآن لابن العربي: مقتضيات.

(٤) في أحكام القرآن لابن العربي: بمطلقه.

وقد روي عن مجاهد أنَّ عبد الله بن رَوَاحة لما سمعها قال: لا أزال حبيساً في سبيل الله حتى أُقتل[١]. والصحيح عندي: أنَّ الوعد يجب الوفاء به على كلِّ حال إلا لعذر.

قلت: قال مالك: فأما العِدَة مثل أن يسأل الرجلُ الرجلَ أن يَهَب له الهبة، فيقولَ له: نعم. ثم يبدو له ألَّا يفعل، فما أرى ذلك يلزمه. وقال ابن القاسم: إذا وعَد الغرماءَ فقال: أُشهدكم أنِّي قد وهبت له من أين يؤدِّي إليكم[٢]، فإنَّ هذا يلزمه. وأما أن يقول: نعم أنا أفعل. ثم يبدو له، فلا أرى عليه ذلك.

قلت: أي: لا يقضى عليه بذلك، فأمَّا في مكارم الأخلاق وحسن المروءة، فنعَم. وقد أثنى الله تعالى على من صَدقَ وعده ووَفَى بنذره فقال: ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟﴾ [البقرة:١٧٧]، وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِسْمَـٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾ [مريم:٥٤] وقد تقدَّم بيانه.

الثالثة: قال النَّخَعِيُّ: ثلاث آيات منعتني أن أقصَّ على الناس: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة:٤٤] ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ [هود:٨٨]، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف:٢].

وخرَّج أبو نُعيم الحافظ من حديث مالك بن دينار، عن ثُمَامة، أنَّ أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «أتيتُ ليلة أُسْرِيَ بي على قوم تُقرَض شفاههم بمقاريضَ من نار، كلَّما قُرِضت، وَفَت. قلت: مَنْ هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء خطباء أمَّتك الذين يقولون ولا يفعلون، ويقرؤون كتابَ الله ولا يَعملون»[٣]. وعن بعض السلف أنَّه قيل له: حدِّثْنَا. فسكت. ثم قيل له: حدِّثْنَا. فقال: أتأمرونني أن أقول ما لا أفعل،

---

(١) تفسير مجاهد ٢/ ٦٧١، وأخرجه عنه عبد الله بن المبارك في الجهاد (٣)، والطبري ٢٢/ ٦٠٧-٦٠٨.

(٢) في (خ)و(د) و(م): من أن يؤدي إليكم. والمثبت من (ف) و(ز) والتمهيد ٣/ ٢٠٨ والكلام منه.

(٣) حلية الأولياء ٢/ ٣٨٦-٣٨٧، وأخرجه أيضاً البيهقي في شعب الإيمان(١٧٧٣) من طريق صدقة بن موسى والحسن بن جعفر، عن مالك بن دينار، به. وصدقة بن موسى ضعيف. ومعنى: وفت، أي: تمَّت وطالت. النهاية(وفا).

وأخرجه أيضاً أبو يعلى (٤٠٦٩)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٩٦٥)، وأبو نعيم في الحلية ٨/ ١٧٢ من طريقين، عن سليمان التيمي، عن أنس بنحوه والإسنادان صحيحان.

فأستَعْجِلَ مَقْتَ الله[١]!.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ استفهام على جهة الإنكار والتوبيخ، على أن يقول الإنسان عن نفسه من الخير مالا يفعله؛ أما في الماضي فيكون كذباً، وأما في المستقبل فيكون خُلْفاً، وكلاهما مذموم. وتأوّل سفيان بن عُيَينة قوله تعالى: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ أي: لِمَ تقولون ما ليس الأمر فيه إليكم، فلا تدرونَ هل تفعلون أو لا تفعلون. فعلى هذا يكون الكلام محمولاً على ظاهره في إنكار القول.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ قد يحتجُّ به في وجوب الوفاء في اللجاج والغضب على أحد قولي الشافعي[٢].

و«أنْ» رفع بالابتداء، وما قبلها الخبر، وكأنَّه قال: قولكم ما لا تفعلون مذمومٌ، ويجوز أن يكون خبر ابتداء محذوف[٣]. الكسائي: «أن» في موضع رفع؛ لأنَّ «كَبُرَ» فعلٌ بمنزلة: بئسَ رجلاً أخوكَ[٤]. و«مَقْتاً» نصب بالتمييز، المعنى: كبر قولهم مالا يفعلونَ مقتاً[٥]. وقيل: هو حال. والمقت والمَقَاتة مصدران، يقال: رجل مقيت وممقوت: إذا لم يحبّه الناس[٦].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤﴾

فيه ثلاث مسائل:

---

(١) الكشاف ٤/ ٩٧ .

(٢) أحكام القرآن للهراسي ٤/ ٤١٣ ، ونذر اللجاج والغضب: هو أن يمنع نفسه من فعل، أو يحثها عليه بتعليق التزام قربة بالفعل أو بالترك. ويقال فيه: يمين اللجاج والغضب، ويقال له أيضاً: يمين الغَلَق، ونذر الغَلَق. المجموع ٨/ ٣٧٦ .

(٣) المشكل لمكي ٢/ ٧٣٠ .

(٤) معاني القرآن للفراء ٣/ ١٥٣ .

(٥) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٦٣ .

(٦) الصحاح (مقت) .

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا﴾ أي: يصفُّون صفًّا[١]: والمفعول مضمر، أي: يصفُّون أنفسهم صفًّا. ﴿كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ قال الفرَّاء[٢]: مرصوص بالرَّصاص. وقال المبرِّد: هو من رصصت البناء إذا لا أَمْتَ بينه وقاربتَ حتى يصيرَ كقطعة واحدة[٣]. وقيل: هو من الرصيص، وهو انضمام الأسنان بعضها إلى بعض.

والتراصُّ: التلاصق. ومنه: وتراصُّوا في الصف[٤]. ومعنى الآية: يحبُّ مَن يثبت في الجهاد في سبيل الله، ويلزم مكانه كثبوت البناء[٥]. وقال سعيد بن جبير: هذا تعليم من الله تعالى للمؤمنين كيف يكونون عند قتال عدوِّهم.

الثانية: وقد استدلَّ بعض أهل التأويل بهذا على أنَّ قتال الراجل أفضل من قتال الفارس؛ لأنَّ الفرسان لا يصطفُّون على هذه الصفة[٦]. المهدَوِيُّ: وذلك غير مستقيم؛ لما جاء في فضل الفارس فِي الأجر والغنيمة. ولا يخرج الفرسان من معنى الآية؛ لأنَّ معناه الثبات.

الثالثة: لا يجوز الخروج عن الصف إلا لحاجة تعرض للإنسان، أو فِي رسالة يرسلها الإمام، أو في منفعة تظهر في المقام، كفرصة تنتهز، و لا خلاف فيها[٧]. وفي الخروج عن الصفِّ للمبارزة، خلاف على قولين: أحدهما: أنَّه لا بأسَ بذلك، إرهاباً للعدوِّ، وطلباً للشهادة، وتحريضاً على القتال. وقال أصحابنا: لا يبرز أحد طالباً لذلك؛ لأنَّ فيه رياءً وخروجاً إلى ما نهى الله عنه من لقاء العدوِّ. وإنما تكون

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٣٣٧ .
(٢) في معاني القرآن له ٣/ ١٥٣ .
(٣) تفسير الرازي ٢٩/ ٣١٢ ولم يعزه.
(٤) لسان العرب (رصص) بنحوه.
(٥) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٦٤ .
(٦) الكشاف ٤/ ٩٧ ، وذكره الطبري في التفسير ٢٢/ ٦١١ بنحوه.
(٧) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٨٩ ، وما بعده منه أيضاً.

المبارزة إذا طلبها الكافر، كما كانت في حروب النبيِّ ﷺ يوم بَدْر، وفي غَزْوة خَيْبر، وعليه دَرَج السلف. وقد مضى القول مستوفى في هذا في «البقرة» عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾(1) [الآية: ١٩٥].

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ لما ذكر أمر الجهاد بيَّن أنَّ موسى وعيسى أَمرا بالتوحيد وجاهدا في سبيل الله، وحلَّ العقاب بمن خالفهما، أي: واذكر لقومك يا محمد هذه القصَّة(2).

قوله تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى﴾ وذلك حين رَمَوْه بالأُدْرَة، حسب ما تقدَّم في آخر سورة «الأحزاب»(3). ومن الأذى ما ذكر في قصَّة قارون: أنَّه دسَّ إلى امرأة تَدَّعي على موسى الفجور(4). ومن الأذى قولهم: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾(5) [الأعراف: ١٣٨]. وقولهم: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ﴾(6) [المائدة: ٢٤]. وقولهم: إنَّك قتلتَ هارونَ. وقد تقدَّم هذا(7).

﴿وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ والرسول يُحترم ويعظَّم(8). ودخلت «قد» على «تعلمون» للتأكيد؛ كأنَّه قال: وتعلمون علماً يقيناً لا شبهةَ لكم فيه.

---

(1) ٣/ ٢٦٠.

(2) زاد المسير ٨/ ٢٥٣.

(3) عند الآية (٦٩).

(4) عرائس المجالس ص٢١٨.

(5) سلفت ٩/ ٣١٧.

(6) سلفت ٧/ ٣٩٩.

(7) ٩/ ٣٤٨.

(8) تفسير البغوي ٤/ ٣٣٧.

﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ﴾ أي: مالوُا عن الحقِّ﴿أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ﴾ أي: أمالها عن الهُدَى[١]. وقيل: «فَلَمَّا زَاغُوا» عن الطاعة «أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ» عن الهداية[٢].

وقيل: «فَلَمَّا زَاغُوا» عن الإيمان«أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ» عن الثواب. وقيل: أي: لما تركوا ما أمِرُوا به من احترام الرسول عليه الصلاة والسلام وطاعة الربِّ، خَلَقَ اللهُ الضلالةَ في قلوبهم؛ عقوبةً لهم على فعلهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ أي: واذكر لهم هذه القصَّة أيضاً. وقال: «يَابنِي إسرائيل» ولم يقل: «ياقوم» كما قال موسى؛ لأنَّه لا نسبَ له فيهم، فيكونون قومه.

﴿إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم﴾أي: بالإنجيل .﴿مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ لأنَّ في التوراة صفتي، وأنِّي لم آتكم بشيء يُخالِفُ التوراة، فتنفروا عني .﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ﴾ مصدِّقاً.

«وَمُبَشِّراً» نصب على الحال[٣]، والعامل فيها معنى الإرسال. و«إليكم» صلة الرسول.

﴿يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُۖ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو: «مِنْ بَعْدِيَ» بفتح الياء[٤]. وهي قراءة السُّلَمِيِّ وزرِّ بن حُبيش وأبي بكر، عن عاصم. واختاره أبو حاتم؛

---

(١) زاد المسير ٨/ ٢٥٣ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٥٢٨ ، وما بعده منه أيضاً.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤٢٠ .

(٤) السبعة ص٦٣٥ ، والنشر ٢/ ٣٨٧ .

لأنَّه اسم، مثل الكاف من بعدك، والتاء من قمت. الباقون: بالإسكان. وقرئ: «من بعدي اسمه أحمد» بحذف الياء من اللفظ[١].

و«أحمد» اسم نبيِّنا ﷺ. وهو اسم عَلَمٍ منقول من صفة، لا من فعل، فتلك الصفة «أفعل» التي يراد بها التفضيل. فمعنى «أحمد» أي: أَحْمَدُ الحامدين لربِّه. والأنبياء صلوات الله عليهم كلُّهم حامدونَ الله، ونبِيُّنا أحمدُ أكثرُهم حمداً.

وأمَّا محمد فمنقول من صفة أيضاً، وهي في معنى: محمود، ولكن فيه معنى المبالغة والتكرار. فالمحمَّد هو الذي حُمِد مرَّةً بعد مرَّةٍ. كما أنَّ المُكَرَّم من الكرم مرَّة بعد مرَّة. وكذلك الممدَّح ونحو ذلك. فاسم محمد مطابق لمعناه، والله سبحانه سمَّاه قبل أن يُسَمِّيَ به نفسَه. فهذا عَلَمٌ من أعلام نبوَّته، إذ كان اسمه صادقاً عليه، فهو محمود في الدنيا، لما هدى إليه ونفع به من العلم والحكمة. وهو محمود في الآخرة، بالشفاعة. فقد تكرَّر معنى الحمد كما يقتضي اللفظ.

ثم إنَّه لم يكن مُحَمَّداً حتى كان أحمدَ، حَمِد ربَّه فَنبَّأه وشرَّفه، فلذلك تقدَّم اسم أحمد على الاسم الذي هو محمد، فذكره عيسى عليه السلام فقال: «اسْمُهُ أَحمَدُ». وذكره موسى عليه السلام حين قال له ربُّه: تلك أمَّة أحمد، فقال: اللَّهُمَّ اجعلني من أمَّة أحمد. فبأحمد ذَكره قبل أن يذكره بمحمَّد؛ لأنَّ حَمْدَه لرَبِّه كان قبل حَمْدِ الناس له. فلما وُجد وبُعث، كان محمداً بالفعل. وكذلك في الشفاعة يحمد ربَّه بالمحامد التي يفتحها عليه، فيكون أحمد الناس لربِّه، ثم يشفع فيحمد على شفاعته[٢].

وروي أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «اسمي في التوراة: أحيد؛ لأنِّي أحيد أمَّتي عن النار، واسمي في الزبور: الماحي؛ محا الله بي عَبَدة الأوثان، واسمي في الإنجيل:

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤٢١ ونسبها إلى ابن محيصن وحمزة والكسائي.

(٢) من قوله: وأحمد، اسم نبينا ﷺ، إلى هنا من التعريف والإعلام ص١٦٩ ، والروض الأنف ١/ ١٨٢ - ١٨٣ .

أحمد، واسمي في القرآن محمَّد؛ لأنِّي محمود في أهل السماء والأرض»[١]. وفي الصحيح: «لِي خمسة أسماء: أنا محمد، وأحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بيَ الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قَدَمي، وأنا العاقب». وقد تقدَّم[٢].

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ قيل: عيسى[٣]. وقيل: محمَّد صلى الله عليهما وسلم[٤]. ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ قرأ الكسائي وحمزة: «ساحر»[٥] نعتاً للرجل. وروي أنَّها قراءة ابن مسعود. الباقون: «سحر» نعتاً لما جاء به الرسول.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ أي: لا أحد أظلم ﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ تقدَّم في غير موضع[٦]. ﴿وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ﴾ هذا تعجُّب ممن كفر بعيسى ومحمَّد بعد المعجزات التي ظهرت لهما.

وقرأ طلحة بن مُصَرِّف: «وَهُوَ يَدَّعِي» بفتح الياء والدال وشدِّها وكسر العين[٧]، أي: ينتسب. ويَدَّعِي وينتسب سواء. ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: من كان في حكمه أنَّه يُختَم له بالضلالة.

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٥٢٩ ، وأورده الذهبي في ميزان الاعتدال ١/ ١٨٥ في ترجمة إسحاق بن بشر بنحوه وعزاه لابن عدي بإسناده عن ابن عباس مرفوعاً، وفيه: إسحاق بن بشر، وهو كذَّاب متروك، وأورده أيضاً الشوكاني في الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة ص٣٢٦ ، وقال: في إسناده وضَّاع.

(٢) البخاري (٤٨٩٦) ، ومسلم (٢٣٥٤)، وسلف ١٠/ ٤٥١ .

(٣) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٥٨ .

(٤) تفسير الطبري ٢٢/ ٦١٣ .

(٥) السبعة ص٢٤٩ ، والتيسير ص١٠١ .

(٦) ٨/ ٣٣٩و٤٥٧ .

(٧) القراءات الشاذة ص١٥٥ ، والمحتسب ٢/ ٣٢١ وما بعده منه، إلا أن القراءة وردت في مطبوع القراءات الشاذة هكذا: وهو يدعى إلا الإسلام. كما ينظر هامش القراءة المتعلِّق بها.

قــولــه تــعـــالـــى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ الإطفاء: هو الإخماد، يستعملان في النار، ويستعملان فيما يَجري مجراها من الضياء والظهور[1]. ويَفترق الإطفاء والإخماد من وجه، وهو أنَّ الإطفاء يستعمل في القليل والكثير، والإخماد إنَّما يستعمل في الكثير دون القليل، فيقال: أطفأت السراج، ولا يقال: أخمدت السراج.

وفي «نُور اللهِ» هنا خمسة أقاويل: أحدها: أنَّه القرآن، يريدون إبطالَه وتكذيبه بالقول، قاله ابن عباس وابن زيد.

والثاني: أنَّه الإسلام، يريدون دفعه بالكلام، قاله السُّدِّيُّ.

الثالث: أنَّه محمَّد ﷺ، يريدون هلاكه بالأراجيف، قاله الضحَّاك.

الرابع: حجج الله ودلائله، يريدون إبطالها بإنكارهم وتكذيبهم، قاله ابن بحر.

الخامس: أنَّه مثَل مضروب، أي: من أراد اطفاءَ نور الشمس بِفِيْهِ، فوجده مستحيلاً ممتنعاً، فكذلك من أراد إبطال الحقِّ، حكاه ابن عيسى[2].

وسبب نزول هذه الآية حكاه عطاء، عن ابن عباس: أنَّ النبيَّ ﷺ أبطأ عليه الوحي أربعين يوماً، فقال كعب بن الأشرف: يامعشرَ اليهود، أَبشِروا! فقد أطفأ اللهُ نورَ محمَّد فيما كان ينزل عليه، وما كان ليتمَّ أمره. فحزن رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى هذه الآية، واتَّصل الوحي بعدها، حكى جميعَه الماورديُّ[3] رحمه الله.

﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ﴾ أي: بإظهاره في الآفاق. وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم: «وَاللهُ مُتمُّ نُورِه»[4] بالإضافة على نيَّة الانفصال، كقوله تعالى:

(١) في النكت والعيون ٥/ ٥٣٠ : والنور. والكلام ـ وما بعده ـ منه.

(٢) الأقوال الخمسة في النكت والعيون ٥/ ٥٣٠ ، وقول ابن زيد أخرجه عنه الطبري ٢٢/ ٦١٤ .

(٣) في النكت والعيون ٥/ ٥٣٠ .

(٤) السبعة ص٦٣٥ ، والتيسير ص٢١٠ .

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] وشبهه، حسب ما تقدَّم بيانه في «آل عمران»[١]. الباقون: «مُتِمٌّ نُورَهُ» لأنَّه فيما يستقبل، فعمِل. ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ من سائر الأصناف.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ﴾ أي: محمَّداً بالحقِّ والرشاد. ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ أي: بالحجج. ومن الظهور الغلبَةُ باليد في القتال، وليس المراد بالظهور ألَّا يبقى دين آخر من الأديان، بل المراد: يكون أهل الإسلام عالين غالبين. ومن الإظهار ألَّا يبقى دين سوى الإسلام في آخر الزمان. قال مجاهد: وذلك إذا نزل عيسى لم يكن في الأرض دين إلَّا دين الإسلام[٢].

وقال أبو هريرة: «لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ» بخروج عيسى[٣]. وحينئذ لا يبقى كافر إلا أسلم. وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لينزلنَّ ابنُ مريم حَكَماً عادلاً، فَلَيَكْسِرَنَّ الصليبَ، وَلَيَقْتُلَنَّ الخنزيرَ، ولَيَضَعَنَّ الجِزْيَةَ، وَلَتُتْرَكَنَّ القِلاص، فلا يُسْعَى عليها، ولَتَذْهَبَنَّ الشَّحْناءُ والتَّباغُضُ والتَّحاسدُ، ولَيَدْعُوَنَّ إلى المال فلا يَقْبَلُهُ أحَدٌ»[٤]. وقيل: «لِيُظْهِرَهُ» أي: ليطلع محمَّداً ﷺ على سائر الأديان، حتى يكون عالماً بها، عارفاً بوجوه بطلانها، وبما حَرَّفوا وغَيَّروا منها. ﴿عَلَى ٱلدِّينِ﴾ أي: الأديان؛ لأنَّ الدين مصدر يعبَّر به عن جمع.

---

(١) ٥/ ٤٤٧.

(٢) الكشاف ٤/ ٩٩.

(٣) أخرجه الطبري ١١/ ٤٢٣ و٢٢/ ٦١٥.

(٤) مسلم (١٥٥): (٢٤٣)، وهو عند أحمد (١٠٤٠٤)، والقلاص: جمع قلوص، وهي الناقة الشابة. النهاية (قلص).

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١١ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٢ وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٣﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ﴾ قال مقاتل: نزلت في عثمان بن مظعون، وذلك أنَّه قال لرسول الله ﷺ: لو أذِنْتَ لي فطلَّقتُ خَوْلة، وتَرَهَّبْتُ واخْتَصَيْتُ وحَرَّمْتُ اللَّحم، ولا أنام بليل أبداً، ولا أُفطر بنهار أبداً! فقال رسول الله ﷺ: «إنَّ مِن سُنَّتي النكاح، ولا رَهبَانيَّةَ في الإسلام، إنَّما رهبانية أمَّتي الجهادُ في سبيل الله، وخِصاءُ أُمَّتي الصومُ، ولا تُحَرِّموا طيباتِ ما أحلَّ اللهُ لكم. ومِنْ سُنَّتي أنام وأقوم، وأُفطر وأصوم، فمن رغب عن سُنَّتي فليس منِّي». فقال عثمان: واللهِ لوَدِدْتُ يا نبيَّ الله أيّ التجاراتِ أحبُّ إلى الله فأتَّجر فيها، فنزلت[1].

وقيل: «أَدُلُّكُمْ» أي: سأدلكم. والتجارة: الجهاد، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم﴾ [التوبة: ١١١].

وهذا خطاب لجميع المؤمنين. وقيل: لأهل الكتاب.

---

(١) لم نقف عليه هكذا، بل ورد معناه في عدة أحاديث، منها: ما أخرجه البخاري (٥٠٧٣)، ومسلم (١٤٠٢)، وأحمد (١٥٨٨) عن سعد بن أبي وقاص قال: لقد ردَّ ذلك ـ يعني النبيَّ ﷺ ـ على عثمان بن مظعون التبتُّلَ، ولو أذِنَ له لاختصينا. ومنها: ما أخرجه أحمد (١٣٨٠٧)، وابن أبي عاصم في الجهاد (٣٣)، وأبو يعلى في مسنده (٤٢٠٤) عن أنس، عن النبي ﷺ قال: لكل نبيٍّ رهبانية، ورهبانية هذه الأمة الجهاد في سبيل الله. ومنها: ما أخرجه البخاري (٥٠٧٥)، ومسلم (١٤٠٤) عن عبد الله قال: كنا نغزو مع رسول الله ﷺ وليس لنا شيء، فقلنا: ألا نستخصي؟ فنهانا عن ذلك، ثم رخَّص لنا أن ننكح المرأة بالثوب، ثم قرأ علينا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾. ومنها ما أخرجه البخاري (٥٠٦٣) عن أنس في الثلاثة الذين سألوا عن عبادة النبي ﷺ، فلما أُخبروا كأنهم تقالُّوها... فجاء رسول الله ﷺ فقال: أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له لكني أصوم وأفطر، وأصلِّي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني. وهو عند مسلم (١٤٠١) بنحوه.

الثانية: قوله: ﴿تُنجِيكُم﴾ أي: تخلصكم﴿مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: مؤلم. وقد تقدَّم[١].

وقراءة العامة: «تُنْجِيكُمْ» بإسكان النون من الإنجاء. وقرأ الحسن وابن عامر وأبو حيوة: «تُنَجِّيكُمْ» مشدَّداً[٢]، من التَّنجية. ثم بيَّن التجارة وهي المسألة:

الثالثة: فقال: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ذكر الأموال أوّلاً؛ لأنَّها التي يبدأ بها في الإنفاق .﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي: هذا الفعل﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من أموالكم وأنفسكم﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. و«تُؤْمِنُونَ» عند المبرِّد والزجَّاج[٣] في معنى: آمنوا، ولذلك جاء «يَغْفِرْ لَكُمْ» مجزوماً على أنَّه جواب الأمر. وفي قراءة عبد الله «آمنوا بالله»، وقال الفرَّاء: «يَغْفِرْ لَكُمْ» جواب الاستفهام، وهذا إنَّما يصحُّ على الحمل على المعنى، وذلك أن يكون «تُؤْمِنُونَ بِالله وتُجَاهِدُونَ» عطف بيان على قوله: «هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى تِجَارةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ» كأنَّ التجارة لم يُدْرَ ماهي، فبُيِّنت بالإيمان والجهاد، فهي هما في المعنى. فكأنَّه قال: هل تؤمنون بالله وتجاهدون، يغفر لكم. الزَّمَخْشرِيُّ[٤]: وجه قول الفرَّاء أنَّ متعلَّق الدلالة هو التجارة، والتجارة مفسَّرة بالإيمان والجهاد. كأنَّه قيل: هل تتَّجرون بالإيمان والجهاد، يغفر لكم. قال المهدوِيُّ: فإن لم تقدِّر هذا التقدير، لم تصحَّ المسألة؛ لأنَّ التقدير يصير: إن دُللتم، يغفر لكم، والغفران إنَّما نُعت بالقبول والإيمان، لابالدلالة. قال الزجّاج[٥]: ليس إذا دلَّهم على ما ينفعهم، يغفر لهم، إنَّما يغفر لهم إذا آمنوا وجاهدوا. وقرأ زيد بن عليٍّ: «تؤمنوا»، «وتجاهدوا» على إضمار لام الأمر، كقوله:

(١) ١/ ٣٠١ .

(٢) السبعة ص٦٣٥ ، والتيسير ص٢١٠ .

(٣) في معاني القرآن له ٥/ ١٦٦ ، وقراءة ابن مسعود فيه، وفي معاني القرآن للفراء ٣/ ١٥٤ ، وما بعده منه أيضاً.

(٤) الكشاف ٤/ ١٠٠ .

(٥) في معاني القرآن له ٥/ ١٦٦ .

مـحـمَّـدُ تَـفْـدِ نـفـسَـكَ كـلُّ نـفـسٍ إذا مـا خِـفْـتَ مـن شـيءٍ تَـبَـالا[١]

أراد: لِتَفْدِ. وأدغم بعضهم فقال: «يغفر لكم»[٢] والأحسن ترك الإدغام؛ لأنَّ الراء حرف متكرِّر قويٌّ، فلا يحسن إدغامه في اللام؛ لأنَّ الأقوى لا يُدغَم في الأضعف.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً﴾ خرَّج أبو الحسين[٣] الآجُرِّي عن الحسن قال: سألتُ عمرانَ بنَ الحُصَين وأبا هريرة عن تفسير هذه الآية: «وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً» فقالا: على الخبير سقطتَ، سَألْنا رسولَ الله ﷺ عنها فقال: «قَصْرٌ من لؤلؤة في الجنَّة، فيه سبعون داراً من ياقوتة حمراء، في كلِّ دار سبعون بيتاً من زَبَرْجَدة خضراء، في كلِّ بيت سبعون سريراً، على كل سرير سبعون فراشاً من كلِّ لَوْن، على كلِّ فراش سبعون امرأةً من الحُور العين، في كلِّ بيت سبعون مائدة، على كلِّ مائدة سبعون لوناً من الطعام، في كلِّ بيت سبعون وَصيفاً ووصيفة، فيُعطي الله تبارك وتعالى المؤمنَ من القُوَّة في غداة واحدة ما يأتي على ذلك كلِّه».

﴿فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ﴾ أي: إقامة. ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي: السعادة الدائمة الكبيرة. وأصل الفوز الظَّفَر بالمطلوب.

---

(١) الكشاف ٤/ ١٠٠ ، والقراءة في البحر المحيط ٨/ ٢٦٣ ، والبيت سلف ٤/ ٤٣٢ .

(٢) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٦٧ ونسبها لأبي عمرو بن العلاء، وما بعده منه أيضاً.

(٣) كذا في النسخ، ولعلّه: محمد بن الحسين الآجري في كتابه «النصيحة»، كما عزاه إليه السيوطي في اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة ٢/ ٣٧٦ ، والحديث أخرجه أيضاً ابن المبارك في الزهد (١٥٧٧)، والبزار في البحر الزخار (٣٥٦٣)، والطبري ١١/ ٥٥٨-٥٥٩ ، وابن أبي حاتم في التفسير ١٠/ ١٨٣٩ (١٠٣٠٢)، والطبراني في الكبير ١٨/ ١٦٠ (٣٥٣) من طرق، عن الحسن، به.

وأورده ابن الجوزي في الموضوعات (١٧٠٤) وقال: هذا حديث موضوع على رسول الله ﷺ، وفي إسناده: جسر بن فرقد، قال يحيى: ليس بشيء، ولا يكتب حديثه. وقال أبو حاتم بن حبان: خرج عن حدِّ العدالة. اهـ. وأورده أيضاً ابن عراق الكناني في تنزيه الشريعة المرفوعة ٢/ ٣٨٢-٣٨٣ . اهـ . وقال ابن كثير في البداية والنهاية ٢٠/ ٢٨٦ : وهذا الحديث غريب، بل الأشبه أنه موضوع، وإذا كان الخبر ضعيفاً لم يمكن اتصاله، فإن جسراً هذا ضعيف جداً.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا﴾ قال الأخفش والفرَّاء: «أُخْرَى» معطوفة على «تِجَارَةٍ» فهي في محلِّ خفض[1]. وقيل: محلُّها رفع، أي: ولكم خصلة أخرى وتجارة تحبونها ﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: هو نصر من الله، فـ«نصر» على هذا تفسير «وأخرى»[2]. وقيل: رفع على البدل من «أُخْرَى» أي: ولكم نصر من الله[3]. ﴿وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ أي: غنيمة في عاجل الدنيا[4]، وقيل: فتح مكة. وقال ابن عباس: يريد فتح فارس والروم[5]. ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ برضا الله عنهم.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾

أكَّد أمر الجهاد، أي: كونوا حوارِيَّ نبيِّكم؛ ليظهركم الله على من خالفكم، كما أظهر حواريَّ عيسى على مَن خالفهم.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع: «أنصاراً لِلهِ» بالتنوين[6]. قالوا: لأنَّ معناه: اثبتوا وكونوا أعواناً لِلهِ بالسيف على أعدائه[7]. وقرأ الباقون من أهل البصرة والكوفة والشام: «أنصار الله» بلا تنوين، وحذفوا لامَ الإضافة من اسم الله تعالى. واختاره أبو عُبيد لقوله: «نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ» ولم ينوَّن، ومعناه: كونوا أنصاراً لدين الله[8]. ثم قيل: في الكلام إضمار، أي: قل لهم يا محمَّد: كونوا أنصار الله. وقيل: هو ابتداء

(١) معاني القرآن للأخفش ٢/ ٧٠٨ .

(٢) معاني القرآن للفراء ٣/ ١٥٤ .

(٣) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٦٦ .

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٣٠٤ .

(٥) الوسيط ٤/ ٢٩٣ ، ونسب القول الأول للكلبي، والثاني لعطاء.

(٦) السبعة ص٦٣٥ ، والتيسير ص٢١٠ .

(٧) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٥٩ .

(٨) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤٢٣ .

خطاب من الله، أي: كونوا أنصاراً، كما فعل أصحاب عيسى فكانوا بحمد الله أنصاراً، وكانوا حواريِّين.

والحوَارِيُّون: خواصُّ الرسل. قال مَعْمَر: كان ذلك بحمد الله، أي: نصروه وهم سبعون رجلاً، وهم الذين بايعوه ليلةَ العَقَبَة[1]. وقيل: هم من قريش، وسمَّاهم قتادة: أبا بكر، وعمر، [وعثمان]، وعليّاً، وطلحة، والزبير، وسعد بن مالك، وأبا عبيدة ـ واسمه عامر ـ وعثمان بن مَظْعُون، وحمزة بن عبد المطلب، ولم يذكر سعيداً فيهم، وذكر جعفر بن أبي طالب ﷺ أجمعين[2]. ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ﴾ وهم أصفياؤه اثنا عشر رجلاً، وقد مضت أسماؤهم في «آل عمران»[3]، وهم أوَّل من آمن به من بني إسرائيل، قاله ابن عباس[4]. وقال مقاتل: قال الله لعيسى: إذا دخلتَ القريةَ فَأْتِ النهر الذي عليه القَصَّارون، فاسألهم النُّصرة، فأتاهم عيسى وقال: مَن أنصاري إلى الله؟ قالوا: نحن ننصرك. فصدَّقوه ونصروه. ومعنى «مَنْ أَنْصَارِي إلى اللهِ» أي: مَن أنصاري مع الله، كما تقول: الذَّوْد إلى الذَّوْد إبل، أي: مع الذَّوْد. وقيل: أي: مَن أنصاري فيما يقرِّب إلى الله. وقد مضى هذا في «آل عمران»[5]. ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾ والطائفتان في زمن عيسى افترقوا بعد رفعه إلى السماء، على ما تقدَّم في «آل عمران»[6] بيانه. ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾ الذين كفروا بعيسى. ﴿فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾ أي: غالبين[7]. قال ابن عباس: أيَّد الله الذين آمنوا في

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٩٠ ، والطبري ٢٢/ ٦٢٠-٦٢١ ، وابن عبد البر في الاستيعاب (١/ ٢٩ بهامش الإصابة) عن معمر، عن قتادة.

(٢) التعريف والإعلام ص١٧٠ ، وما بين حاصرتين منه، والخبر أخرجه عن قتادة عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٩٠ ، والطبري ٢٢/ ٦٢١ ، والثعلبي في عرائس المجالس ص٣٩٤ ، إلا أنهم زادوا: عبد الرحمن ابن عوف.

(٣) ٥/ ١٤٩ ولم يذكر هناك أسماءهم، بل ذكر سبب تسميتهم.

(٤) الكشاف ٤/ ١٠١ دون عزو.

(٥) ٥/ ١٤٨ ، والذَّوْدُ من الإبل: ما بين الثلاث إلى العشر، والمعنى: إذا جمعتَ القليل مع القليل، صار كثيراً. الصحاح (ذود).

(٦) ٥/ ١٥٤ .

(٧) غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٦٤ .

زمن عيسى بإظهار محمَّد على دين الكفار[١]. وقال مجاهد: أُيِّدوا في زمانهم على مَن كفر بعيسى. وقيل: أيَّدنا الآن المسلمين على الفرقتين الضالَّتين، من قال: كان الله فارتفع، ومن قال: كان ابْنَ الله فرفعه الله إليه؛ لأنَّ عيسى ابن مريم لم يقاتل أحداً، ولم يكن في دين أصحابه بعده قتال. وقال زيد بن عليٍّ وقتادة: «فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ»: غالبين بالحجَّة والبرهان؛ لأنَّهم قالوا فيما روي: ألستم تعلمونَ أنَّ عيسى كان ينام، واللهُ لا ينام، وأنَّ عيسى كان يأكل، واللهُ تعالى لا يأكل!. وقيل: نزلت هذه الآية في رسل عيسى عليه الصلاة والسلام.

قال ابنُ اسحاق[٢]: وكان الذي بعثهم عيسى من الحواريِّين والأتباع فطرس[٣] وبولس إلى رُومِية، وأندراييس[٤] ومتى[٥] إلى الأرض التي يأكل أهلها الناس. وتوماس[٦] إلى أرض بابل من أرض المشرق. وفيلبس[٧] إلى قُرْطَاجَنَّة، وهي أفريقية. ويحنس[٨] إلى دفسوس[٩] قرية أهل الكهف. ويعقوبس إلى أورِيشَلم وهي بيت المقدس. وابن تلما إلى العرابية[١٠] وهي أرض الحجاز. وسِيمن إلى أرض البربر.

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٣٣٩ بنحوه.

(٢) أخرجه عنه الطبري في تاريخ الرسل والملوك ٢/ ٦٠٣، وقد اختلفت النسخ الخطية في رسم هذه الأسماء، فأثبتناه من التاريخ كما هو، ثم أشرنا إلى اختلاف النسخ الخطية، ووردت أسماءهم أيضاً عند الثعلبي في عرائس المجالس ص٣٩٤، والماوردي في المحبر ص٤٦٤ بنحو ما ذكر هنا، وينظر لزاماً: الإعلام بأصول الأعلام للدكتور عبد الرحيم، وقاموس الكتاب المقدس.

(٣) في (ف) و(د) و(خ): قطرس، وفي (ظ): يطرس.

(٤) في (خ): اندراريس.

(٥) في (ف): متا، وفي (خ): ومتنا.

(٦) في (ف) و(خ): بوناس، وفي (د): اتوناس.

(٧) في (ف): قليس، وفي (خ): قَيْلِيس.

(٨) ضبطها في (خ) هكذا: يُحَنْس.

(٩) في (ف) و(د) و(خ): أقسوس. وفي (ظ): أفسوس.

(١٠) في النسخ الخطية: الأعرابية.

ويهوذا وبردس[١] إلى الإسكندرية وما حولها. فأيَّدهم الله بالحجَّة ﴿فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾ أي: عالين، من قولك: ظهرتُ على الحائط، أي: عَلَوْت عليه. والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب.

سُورَةُ الصَّفِّ

مَدنيَّةٌ، وقيل: مَكِّيَّةٌ[1]، وآيها أربعَ عشرةَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) - ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ سبقَ تفسيرُه.

(٢) - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ رُوِيَ أنَّ المسلمينَ قالوا: لو عَلِمْنا أحبَّ الأَعمالِ إلى اللهِ لبَذَلْنا فيهِ أَموالَنا وأنفُسَنا فأنزل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ﴾ فولَّوا يومَ أحدٍ، فنزَلَتْ[2].

و﴿لِمَ﴾ مركَّبَةٌ مِن لامِ الجرِّ و(ما) الاستفهاميَّةِ، والأكثرُ حذفُ ألِفِها مع حرفِ الجرِّ لكثرةِ استعمالِهما معًا واعتناقِهما في الدلالةِ على المُستفهَمِ عنه.

(٣) - ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ المَقتُ: أشَدُّ البُغْضِ،

---

(١) انظر: «البيان في عد آي القرآن» (ص: ٢٤٥)، وفيه: مدنية في قول قتادة، وقال ابن عباس ومجاهد وعطاء: هي مكِّيَّة.

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢٣٧٨٩)، والترمذي (٣٣٠٩)، وابن حبان في «صحيحه» (٤٥٩٤)، والحاكم في «المستدرك» (٢٨٩٩)، قال الذهبي في «التلخيص»: على شرط البخاري ومسلم.

ونصبُه على التَّمييزِ للدَّلالةِ على أنَّ قولَهم هذا مقتٌ خالصٌ كبُرَ عندَ مَن يَحقُرُ دونَهُ كلُّ عظيمٍ مُبالغَةً في المنعِ عنهُ.

(٤) ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا﴾ مُصطفِّينَ، مَصدرٌ وُصِفَ به.

﴿كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ﴾ في تراصِّهِم مِن غيرِ فُرجةٍ، حالٌ مِن المستكنِّ في الحالِ الأولى.

والرَّصُّ: اتِّصالُ بعضِ البناءِ بالبعضِ واستحكامُه.

(٥) ـ ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ﴾ مقدَّرٌ بـ: اذكر، أو كانَ كذا.

﴿يَٰقَوۡمِ لِمَ تُؤۡذُونَنِي﴾ بالعِصيانِ والرَّمي بالأُدْرةِ.

﴿وَقَد تَّعۡلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ﴾ بما جِئتُكُم مِن المُعجزاتِ، والجملةُ حالٌ مُقرِّرةٌ للإنكارِ، فإنَّ العلمَ بنبوَّتِه يوجِبُ تَعظيمَه ويمنَعُ إيذاءَه، و(قد) لتَحقيقِ العلمِ.

﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ﴾ عن الحقِّ ﴿أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾ صَرَفَها عن قبولِ الحقِّ والميلِ إلى الصَّوابِ.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ هدايةً مُوصِلَةً إلى معرفةِ الحقِّ أو إلى الجنَّةِ.

(٦) ـ ﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ ولعلَّه لم يقل: (يا قوم) كما قالَ مُوسى؛ لأنَّه لا نسبَ له فيهم.

﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا﴾ في حالِ تَصديقِي لما تقدَّمني مِن التَّوراةِ وتَبشيرِي ﴿بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي﴾ والعامِلُ في الحالينِ ما في الرَّسولِ مِن معنى الإرسالِ لا الجارِّ؛ لأنَّه لغوٌ إذ هو صِلَةٌ للرَّسولِ فلا يعملُ.

﴿ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُ﴾ يعني: محمدًا عليه السَّلامُ، والمعنى: ديني التَّصديقُ بكُتُبِ اللهِ وأنبيائِه، فذكرَ أوَّلَ الكتبِ المَشهورةِ الذي حكم به النَّبيُّونَ، والنَّبيَّ الذي هو خاتَمُ المُرسلَين(١).

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ الإشارةُ إلى ما جاءَ به أو إليه، وتَسميَتُه سِحرًا للمُبالغَةِ، ويؤيِّدُه قراءةُ حمزةَ والكِسائيِّ: ﴿هذا ساحرٌ﴾(٢) على أنَّ الإشارةَ إلى عيسى.

(٧) - ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُوَ يُدۡعَىٰٓ إِلَى ٱلۡإِسۡلَٰمِ﴾ أي: لا أحدَ أظلَمُ ممَّنْ يُدعى إلى الإسلامِ الظَّاهرِ حَقِّيَّتُه المقتضي له خيرُ الدَّارينِ فيضعُ مَوضِعَ إجابَتِه الافتراءَ على اللهِ بتكذيبِ رَسُولِه وتسميةِ آياتِه سِحرًا، فإنَّه يَعُمُّ إثباتَ المنفيِّ ونفيَ الثَّابتِ.

وقُرِئَ: (يُدَّعَى)(٣) يقال: دَعاهُ وادَّعاهُ كـ: لَمَسهُ والتَمَسهُ.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لا يُرشِدُهُم إلى ما فيه فلاحُهُم.

(٨) - ﴿يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ﴾ أي: يريدونَ أن يُطفِئُوا، واللامُ مَزيدَةٌ لِمَا فيها مِن مَعنى الإرادةِ تأكيدًا(٤) كما زِيدَتْ لِمَا فيها مِن مَعنى الإضافةِ تأكيدًا لها في: (لا أبا لك)، أو يريدونَ الافتراءَ ليُطفِئُوا.

﴿نُورَ ٱللَّهِ﴾ يعني: دينَهُ أو كتابَهُ أو حُجَّتَه ﴿بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ بطَعنِهِم فيه.

---

(١) في نسخة التفتازاني والخيالي: «خاتم النَّبيين».

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٢٤٩)، و«التيسير» (ص: ١٠١).

(٣) وهي قراءة طلحة بن مصرف، انظر: «إعراب القرآن» للنحاس (٤/ ٢٧٧)، و«المحتسب» (٢/ ٣٢١)، و«الكشاف» (٩/ ٨٩)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٠٣).

(٤) في نسخة الخيالي زيادة: «لها».

﴿والله متِمٌّ نورَهُ﴾ مبلِّغٌ غايَتَه بنَشرِه وإعلائِه.

وقرأ ابنُ كثيرٍ وحمزةُ والكسائيُّ وحفصٌ بالإضافةِ[1].

﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ إرغامًا لهم.

(٩) ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ﴾ بالقُرآنِ والمُعجِزَةِ ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ والمِلَّةِ الحنيفيَّةِ.

﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ ليغلبَه على جميعِ الأديانِ ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ لِمَا فيهِ مِن محضِ التَّوحيدِ وإبطالِ الشِّركِ.

(١٠) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وقرأ ابنُ عامرٍ: ﴿تُنَجِّيكُم﴾ بالتَّشديدِ[2].

(١١) ـ ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ استئنافٌ مُبيِّنٌ للتِّجارةِ، وهو الجمعُ بينَ الإيمانِ والجهادِ المُؤدِّي إلى كمالِ عزِّهم[3]، والمرادُ به الأمرُ، وإنَّما جيءَ بلَفظِ الخبرِ إيذانًا بأنَّ ذلك مما لا يُترَكُ.

﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ يعني: ما ذكرَ مِن الإيمانِ والجِهادِ.

﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ إنْ كُنتم مِن أهلِ العلمِ؛ إذ الجاهلُ لا يُعتَدُّ بفعلِه.

(١٢) ـ ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ جوابٌ للأَمرِ المَدلولِ عليه بلفظِ الخبرِ، أو لشرطٍ أو استفهامٍ دلَّ عليه الكلامُ تقديرُه: أن تُؤمِنُوا وتُجاهِدُوا، أو هَلْ تَقبلونَ أَنْ أَدُلَّكُم يغفِر لكم، ويبعُدُ جعلُه جوابَ ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾ لأنَّ مُجرَّدَ دلالته لا تُوجِبُ المغفرةَ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٦٣٥)، و«التيسير» (ص: ٢١٠).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٦٣٥)، و«التيسير» (ص: ٢١٠).

(٣) في نسخة الفاروقي والتفتازاني: «غيرهم»، وفسره الخفاجي بقوله: لأنَّهُ يحملهم على الإسلام. انظر: «حاشية الخفاجي».

﴿وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الإشارةُ إلى ما ذكرَ مِن المغفرةِ وإدخالِ الجنَّةِ.

(١٣) ـ ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا﴾ ولكم إلى هذهِ النِّعمَةِ المذكورةِ نِعمَةٌ أُخرَى عاجِلَةٌ مَحبوبَةٌ، وفي ﴿تُحِبُّونَهَا﴾ تعريضٌ بأنَّهم يُؤثِرونَ العاجلَ على الآجلِ.

وقيل: ﴿أخرى﴾ منصوبةٌ بإضمارِ: يُعطِكُم أو تُحبُّونَ، أو مبتدأٌ خبرُه:

﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ وهو على الأوَّلِ بدلٌ أو بيانٌ، وعلى قولِ النَّصبِ خبرُ محذوفٍ، وقَدْ قُرِئَ بما عطفَ عليه بالنَّصبِ[1] على البدلِ أو الاختصاصِ أو المصدرِ.

﴿وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ عاجلٌ ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ عطفٌ على محذوفٍ، مثل: قُلْ يا أيها الذينَ آمَنُوا وبشِّر، أو على ﴿تُؤْمِنُونَ﴾ فإنَّه في معنى الأمرِ، كأنَّه قال: آمِنُوا وجاهِدُوا أيُّها المؤمنونَ وبشِّرْهُم يا رسولَ اللهِ بما وعدتَهُم عليه آجلًا وعاجِلًا.

(١٤) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾ وقرأَ الحِجازيَّانِ وأبو عمرٍو بالتَّنوينِ واللامِ[2]، لأنَّ المعنى: كونوا بعضَ أنصارِ اللهِ.

﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: مَن جُندي مُتوجِّهًا إلى نصرةِ اللهِ؛ ليطابقَ قولَه:

﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ والإضافةُ الأُولى إضافةُ أحدِ المُتشاركينِ إلى الآخرِ لِمَا بينَهُما مِن الاختصاصِ، والثَّانيةُ إضافةُ الفاعلِ إلى المفعولِ[3]، والتَّشبيهُ باعتبارِ

---

(١) انظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٣٠٤)، و«البحر» (٢٠/ ٣١٩) عن ابن أبي عبلة.

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٦٣٥)، و«التيسير» (ص: ٢١٠)، و«النشر» (٢/ ٣٨٧).

(٣) قوله: «والإضافة الأولى»؛ أي: في ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ﴾، «والثانية»؛ أي: في ﴿أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾. انظر: «حاشية الأنصاري» (٥/ ٣٣٠).

المعنى؛ إذ المرادُ: قُل لَهُم كمَا قال عيسى، أو كونوا أنصارًا كما كانَ الحواريُّونَ حينَ قال لهم عيسَى: ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾، والحواريُّونَ: أصفياؤه وهُمْ أوَّلُ مَن آمنَ به، مِن الحَوَارِ[1] وهو البياض، وكانوا اثْنَي عشرَ رَجُلًا.

﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾ أي: بعيسى ﴿فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ﴾ بالحُجَّةِ أو بالحربِ، وذلك بعدَ رَفعِ عيسى ﴿فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾ فصاروا غالِبينَ.

عن النبيِّ عليه السَّلامُ: «مَن قرأَ سورةَ الصفِّ كان عيسى مصليًّا عليه مُستغفرًا له ما دامَ في الدُّنيا وهو يومَ القيامةِ رَفيقُه»[2].

***

---

(١) في نسخة الطبلاوي: «من الحور»، وأشار الخفاجي في «حاشيته» إلى النسختين.

(٢) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٦/ ٣٤٠)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ٢٩٠)، من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه. وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور. وانظر: «الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة» للشوكاني (ص: ٢٩٦).

(٦١) سورة الصف مدنية
وآياتها أربع عشرة

روى الترمذي، عن عبد الله بن سلام قال: قعدنا نفراً من أصحاب رسول الله ﷺ، فتذاكرنا، فقلنا: لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله عزّ وجلّ لعملناه، فأنزل الله تعالى: ﴿سبّح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم * يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون﴾ قال عبد الله بن سلام: فقرأها علينا رسول الله ﷺ»[1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ ﴿٤﴾

قد تقدم الكلام على قوله تعالى: ﴿سبح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم﴾ غير مرة بما أغنى عن إعادته، وقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون﴾ إنكار على من يعد وعداً، أو يقول قولاً لا يفي به، وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «آية المنافق ثلاث: إذا وعد أخلف، وإذا حدث كذب، وإذا اؤتمن خان»، ولهذا أكد الله تعالى هذا الإنكار عليهم بقوله تعالى: ﴿كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون﴾ نزلت حين تمنوا فريضة الجهاد عليهم، فلما فرض نكل عنه بعضهم، كقوله تعالى: ﴿فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية﴾، وقال تعالى: ﴿فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت﴾ الآية، وهكذا هذه الآية كما قال ابن عباس: كان ناس من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد يقولون: لوددنا أن الله عزّ وجلّ دلنا على أحب الأعمال إليه فنعمل به، فأخبر الله نبيّه أن أحب الأعمال إيمان به لا شك فيه، وجهاد أهل معصيته الذين خالفوا بالإيمان ولم يقروا به، فلما نزل الجهاد كره ذلك ناس من المؤمنين، وشق عليهم أمره، فقال الله سبحانه وتعالى: ﴿يا أيها

---

(١) أخرجه الترمذي والإمام أحمد.

الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون﴾[1] ؟ وقال مقاتل بن حيان: قال المؤمنون لو نعلم أحب الأعمال إلى الله لعملنا به، فدلهم الله على أحب الأعمال إليه فقال: ﴿إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً﴾ فبين لهم، فابتلوا يوم أُحُد بذلك فولوا عن النبي ﷺ مدبرين، فأنزل الله في ذلك: ﴿يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون﴾، وقال قتادة والضحّاك: نزلت توبيخاً لقوم كانوا يقولون: قتلنا، ضربنا، طعنا، وفعلنا؛ ولم يكونوا فعلوا ذلك. وقال ابن زيد: نزلت في قوم من المنافقين كانوا يعدون المسلمين النصر ولا يفون لهم بذلك، وقال مجاهد: نزلت في نفر من الأنصار فيهم (عبدالله بن رواحة)، قالوا في مجلس: لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله لعملنا به حتى نموت؟ فأنزل الله تعالى هذا فيهم، فقال عبدالله بن رواحة: لا أبرح حبيساً في سبيل الله أموت فقتل شهيداً.

ولهذا قال تعالى: ﴿إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص﴾ فهذا إخبار من الله تعالى بمحبته عباده المؤمنين، إذا صفوا مواجهين لأعداء الله في حومة الوغى، يقاتلون في سبيل الله من كفر بالله، لتكون كلمة الله هي العليا، ودينه هو الظاهر العالي على سائر الأديان، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة يضحك الله إليهم: الرجل يقوم من الليل، والقوم إذ صفوا للصلاة، والقوم إذا صفوا للقتال»[2]. وقال مطرف: كان يبلغني عن أبي ذر حديث كنت أشتهي لقاءه، فلقيته فقلت: يا أبا ذر كان يبلغني عنك حديث فكنت أشتهي لقاءك، فقال: لله أبوك، فقد لقيت فهات، فقلت: كان يبلغني عنك أنك تزعم أن رسول الله ﷺ حدثكم **أن الله يبغض ثلاثة ويحب ثلاثة**، قال: أجل فلا أخالني أكذب على خليلي ﷺ، قلت: فمن هؤلاء الثلاثة الذين يحبهم الله عزّ وجلّ؟ قال: رجل غزا في سبيل الله خرج محتسباً مجاهداً، فلقي العدو فقتل، وأنتم تجدونه في كتاب الله المنزل، ثم قرأ: ﴿إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص﴾[3] وذكر الحديث. وقال سعيد بن جبير في قوله تعالى: ﴿إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً﴾ قال: كان رسول الله ﷺ لا يقاتل العدو إلا أن يصافهم، وهذا تعليم من الله للمؤمنين، وقوله تعالى: ﴿كأنهم بنيان مرصوص﴾ أي ملتصق بعضه في بعض، من الصف في القتال، وقال مقاتل بن حيان: ملتصق بعضه إلى بعض، وقال ابن عباس: ﴿كأنهم بنيان مرصوص﴾ مثبت لا يزول ملصق بعضه ببعض، وقال ابن جرير، عن يحيى ابن جابر الطائي، عن أبي بحرية قال: كانوا يكرهون القتال على الخيل، ويستحبون القتال على الأرض لقول الله عزّ وجلّ: ﴿إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص﴾ قال، وكان أبو بحرية يقول: إذا رأيتموني التفت في الصف فجأوا[4] في لحيي.

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم

---

(١) وهذا اختيار ابن جرير.

(٢) أخرجه ابن ماجة والإمام أحمد.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم ورواه الترمذي والنسائي بنحوه.

(٤) فجأوا: أي اضربوا (من: وجأ عنقه أو في عنقه) ضربه.

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٦﴾

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله وكليمه (موسى بن عمران) عليه السلام أنه قال لقومه: ﴿لم تؤذونني وقد تعلمون إني رسول الله إليكم﴾، أي لم توصلون الأذى إليَّ وأنتم تعلمون صدقي فيما جئتكم به من الرسالة ؟ وفي هذا تسلية لرسول الله ﷺ فيما أصابه من الكفّار . وقوله تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ أي فلما عدلوا عن اتباع الحق مع علمهم به ، أزاغ الله قلوبهم عن الهدى، وأسكنها الشك والحيرة والخذلان ، كما قال تعالى: ﴿ونذرهم في طغيانهم يعمهون﴾، وقال تعالى: ﴿ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً﴾، ولهذا قال تعالى في هذه الآية : ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾، وقوله تعالى: ﴿وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يديَّ من التوراة ومبشراً برسولٍ يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾ يعني التوراة، وقد بشرت بي وأنا مصداق ما أخبرت عنه، وأنا مبشر بمن بعدي وهو الرسول النبي الأمي العربي المكي (أحمد) فعيسى عليه السلام هو خاتم أنبياء بني إسرائيل، وقد أقام في ملأ بني إسرائيل مبشراً بمحمد وهو أحمد خاتم الأنبياء والمرسلين الذي لا رسالة بعده ولا نبوة. وما أحسن ما أورد البخاري، عن جبير بن مطعم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إن لي أسماء، أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله به الكفر ، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي ، وأنا العاقب »[1] . قال ابن عباس: ما بعث الله نبياً إلا أخذ عليه العهد ، لئن بعث محمد وهو حي ليتبعنه ، وأخذ عليه أن يأخذ على أُمّته لئن بعث محمد وهم أحياء ليتبعنه وينصرنه .

وقال محمد بن إسحاق، عن خالد بن معدان، عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم قالوا : يا رسول الله أخبرنا عن نفسك، قال: « دعوة أبي إبراهيم، وبُشْرى عيسى، ورأت أُمي حين حملت بي كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور بصرى من أرض الشام »[2]. وقال رسول الله ﷺ: « إني عند الله لخاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طينته، وسأنبئكم بأول ذلك دعوة أبي إبراهيم وبشارة عيسى بي، ورؤيا أُمّي التي رأت وكذلك أُمّهات النبيين يرين »[3]. وروى أحمد عن أبي أمامة قال، قلت: يا رسول الله ما كان بدء أمرك ؟ قال: « دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأت أُمي أنه يخرج منها نور أضاءت له قصور الشام »[4]. وقال عبدالله بن مسعود: بعثنا رسول الله ﷺ إلى النجاشي ونحن نحوٌ من ثمانين رجلاً، منهم (عبدالله بن مسعود) و (جعفر) و (عبدالله ابن رواحة) و (عثمان بن مظعون) و (أبو موسى) فأتوا النجاشي، وبعثت قريش (عمرو بن العاص) و (عمارة

---

(١) أخرجه البخاري ورواه مسلم بنحوه .

(٢) رواه ابن إسحاق ، قال ابن كثير : إسناده جيد وله شواهد من وجوه أخر .

(٣) أخرجه الإمام أحمد عن العرباض بن سارية مرفوعاً .

(٤) أخرجه الإمام أحمد .

ابن الوليد) بهدية ، فلما دخلا على النجاشي سجدا له ، ثم ابتدراه عن يمينه وعن شماله، ثم قالا له : إن نفراً من بني عمّنا نزلوا أرضك ورغبوا عنا ، وعن ملتنا، قال: فأين هم ؟ قالا : هم في أرضك فابعث إليهم، فبعث إليهم، فقال جعفر : أنا خطيبكم اليوم، فاتبعوه، فسلّم ولم يسجد، فقالوا له: مالك لا تسجد للملك ؟ قال: إنا لا نسجد إلا لله عزّ وجل، قال: وما ذاك ؟ قال: إن الله بعث إلينا رسوله، فأمرنا أن لا نسجد لأحد إلا لله عزّ وجلّ، وأمرنا بالصلاة والزكاة ، قال عمرو بن العاص: فإنهم يخالفونك في عيسى بن مريم، قال: ما تقولون في عيسى ابن مريم وأُمّه ؟ قال: نقول كما قال الله عزّ وجلّ : هو كلمة الله ، وروحه ألقاها إلى العذراء البتول التي لم يمسها بشر ، ولم يعترضها ولد، قال، فرفع عوداً من الأرض، ثم قال: يا معشر الحبشة والقسيسين والرهبان، والله ما يزيدون على الذي نقول فيه ما يساوي هذا ، مرحباً بكم وبمن جئتم من عنده ، أشهد أنه رسول الله وأنه الذي نجده في الإنجيل، وأنه الذي بَشّر به عيسى بن مريم، انزلوا حيث شئتم، والله لولا ما أنا فيه من الملك لأتيته حتى أكون أنا أحمل نعليه ، وأوضئه ، وأمر بهدية الآخرين فرُدَّتْ إليهما[1] . **والمقصد** أن الأنبياء عليهم السلام لم تزل تنعته وتحكيه في كتبها على أممها، وتأمرهم باتباعه ونصره وموازرته إذا بُعث، وكان أول ما اشتهر الأمر في أهل الأرض، على لسان إبراهيم الخليل والد الأنبياء بعده ، حين دعا لأهل مكّة أن يبعث الله فيهم رسولاً منهم، وكذا على لسان عيسى بن مريم، ولهذا قال: « دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى بن مريم، ورؤيا أمي التي رأت » أي ظهر في أهل مكة أثر ذلك، والإرهاص، فذكره صلوات الله وسلامه عليه . وقوله تعالى: ﴿فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين﴾ قال ابن جريج، ﴿فلما جاءهم﴾ أحمد أي المبشر به في الأعصار المتقادمة المنوه بذكره في القرون السالفة، لما ظهر أمره وجاء بالبينات قال الكفرة والمخالفون ﴿هذا سحر مبين﴾ .

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾

يقول تعالى : ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام﴾، أي لا أحد أظلم ممن يفتري الكذب على الله ، ويجعل له أنداداً وشركاء وهو يُدْعى إلى التوحيد والإخلاص، ولهذا قال تعالى: ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾، ثم قال تعالى : ﴿يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم﴾ أي يحاولون أن يردوا الحق بالباطل ، ومثلهم في ذلك كمثل من يريد أن يطفيء شُعاع الشمس بفيه ، وكما أن هذا مستحيل كذلك ذلك مستحيل ، ولهذا قال تعالى : ﴿والله متم نوره ولو كره الكافرون * هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾ ، وقد تقدّم الكلام على هاتين الآيتين في سورة براءة بما فيه كفاية ، ولله الحمد والمنة .

---

(١) رواه أحمد وأصحاب السير .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾

فسّر الله تعالى هذه التجارة العظيمة التي لا تبور ، التي هي محصلة للمقصود ومزيلة للمحذور فقال تعالى: ﴿ تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾، أي من تجارة الدنيا والكد لها والتصدي لها وحدها، ثم قال تعالى: ﴿ يغفر لكم ذنوبكم﴾ أي إن فعلتم ما أمرتكم به ودللتكم عليه ، غفرت لكم الزلات، وأدخلتكم الجنات، والمساكن الطيبات، ولهذا قال تعالى: ﴿ ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم﴾، ثم قال تعالى: ﴿وأُخرَى تحبونها﴾ أي وأزيدكم على ذلك زيادة تحبونها ، وهي ﴿ نصر من الله وفتح قريب﴾ أي إذا قاتلتم في سبيله ونصرتم دينه، تكفل الله بنصركم، قال الله تعالى : ﴿ إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾، وقال تعالى : ﴿ ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز﴾، وقوله تعالى: ﴿ وفتح قريب﴾ أي عاجل، فهذه الزيادة هي خير الدنيا موصول بنعيم الآخرة، لمن أطاع الله ورسوله، ونصر الله ودينه، ولهذا قال تعالى: ﴿ وبشر المؤمنين﴾ .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين ، أن يكونوا أنصار الله في جميع أحوالهم، بأقوالهم وأفعالهم وأنفسهم وأموالهم، وأن يستجيبوا لله ولرسوله كما استجاب الحواريون لعيسى، حين قـال: ﴿ من أنصاري إلى الله﴾ أي من معيني في الدعوة إلى الله عزّ وجلّ، ﴿ قال الحواريون﴾ وهم أتباع عيسى عليه السلام ﴿ نحن أنصار الله﴾ أي نحـن أنصارك على ما أرسلت بـه ، وموازروك على ذلك ، وهكذا كان رسول الله ﷺ يقول في أيام الحج: « من رجل يؤويني حتى أبلغ رسالة ربي ، فإن قريشاً قـد منعوني أن أبلغ رسالة ربي » حتى قيض الله عزّ وجلّ له الأوس والخزرج من أهل المدينة ، فبايعوه ووازروه وشارطوه أن يمنعوه من الأسود والأحمر إن هو هاجر إليهم، فلما هاجر إليهم بمن معه من أصحابه، وفوا له بمـا عاهدوا الله عليه، ولهذا سماهم الله ورسوله (الأنصار) وصار ذلك علماً عليهم رضي الله عنهم وأرضاهم . وقوله تعالى: ﴿ فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة﴾ أي لما بلغ عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام رسالة ربه إلى قومه، ووازره من وازره من الحواريين، اهتدت طائفة من بني إسرائيل بما جاءهم به وضلت طائفة، فخرجت عما جاءهم به ، وجحدوا نبوته ورموه وأمه بالعظائم، وهم اليهود عليهم لعائن الله المتتابعة

إلى يوم القيامة، وغلت فيه طائفة ممن اتبعه حتى رفعوه فوق ما أعطاه الله من النبوة وافترقوا فرقاً وشيعاً، فمن قائل منهم: إنه ابن الله، وقائل: إنه ثالث ثلاثة (الأب والابن وروح القدس) ومن قائل: إنه الله، وكل هذه الأقوال مفصلة في سورة النساء . وقوله تعالى: ﴿فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم﴾ أي نصرناهم على من عاداهم من فرق النصارى ﴿فأصبحوا ظاهرين﴾ أي عليهم وذلك ببعثة محمد ﷺ . قال ابن عباس: ﴿فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة﴾ يعني الطائفة التي كفرت من بني إسرائيل في زمن عيسى، والطائفة التي آمنت في زمن عيسى ﴿فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين﴾ بإظهار محمد ﷺ دينهم على دين الكفار ، فأُمّة محمد ﷺ لا يزالون ظاهرين على الحق حتى يأتي أمر الله وهم كذلك ، وحتى يقاتل آخرهم الدجال مع المسيح عيسى بن مريم عليه السلام كما وردت بذلك الأحاديث الصحاح، والله أعلم .

[آخر تفسير سورة الصف ، ولله الحمد والمنة]

* * *

تفسير سورة الصّف

وهى مدنية .

قال الإمام أحمد رحمه الله : حدثنا يحيى بن آدم ، حدثنا ابن المبارك ، عن الأوزاعى ، عن يحيى بن أبى كثير ، عن أبى سلمة ـ وعن عطاء بن يسار ، عن أبى سلمة ، عن عبد الله بن سلام قال : تذاكرنا : أيكم يأتى رسول الله ﷺ فيسأله : أى الأعمال أحب إلى الله ؟ فلم يقم أحد منا ، فأرسل رسولُ الله ﷺ إلينا رجلا ، فجمعنا فقرأ علينا هذه السورة ، يعنى سورة الصف كلها . هكذا رواه الإمام أحمد (١) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا العباس بن الوليد بن مَزْيد البيروتى(٢) قراءة قال : أخبرنى أبى ، سمعت الأوزاعى ، حدثنى يحيى بن أبى كثير ، حدثنى أبو سلمة بن عبد الرحمن ، حدثنى عبد الله ابن سلام . أن أناسا من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا : لو أرسلنا إلى رسول الله نسأله عن أحب الأعمال إلى الله عز وجل ؟ فلم يذهب إليه أحد منا ، وهبْنَا أن نسأله عن ذلك ، قال : فدعا رسول الله ﷺ أولئك النفر رجلا رجلا حتى جمعهم ، ونزلت فيهم هذه السورة : (سبح) الصف قال عبد الله بن سلام : فقرأها علينا رسول الله ﷺ كلها . قال أبو سلمة : وقرأها علينا عبد الله بن سلام كلها ، قال يحيى بن أبى كثير وقرأها علينا أبو سلمة كلها . قال الأوزاعى : وقرأها علينا يحيى بن أبى كثير كلها . قال أبى : وقرأها علينا الأوزاعى كلها .

وقد رواه الترمذى عن عبد الله بن عبد الرحمن الدارمى : حدثنا محمد بن كثير ، عن الأوزاعى، عن يحيى بن أبى كثير ، عن أبى سلمة ، عن عبد الله بن سلام قال : قعدنا نفرا من أصحاب رسول الله ﷺ فتذاكرنا ، فقلنا : لو نعلم : أى الأعمال أحب إلى الله عز وجل لعملناه . فأنزل الله : ﴿**سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ . [كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا]**(٣) ﴾ قال عبد الله بن سلام : فقرأها علينا رسول الله ﷺ . قال أبو سلمة : فقرأها علينا ابن سلام . قال يحيى : فقرأها علينا أبو سلمة . قال ابن كثير : فقرأها علينا الأوزاعى . قال عبد الله : فقرأها علينا ابن كثير .

ثم قال الترمذى : وقد خولف محمد بن كثير فى إسناد هذا الحديث عن الأوزاعى ، فروى ابن المبارك ، عن الأوزاعى ، عن يحيى بن أبى كثير ، عن هلال بن أبى ميمونة ، عن عطاء بن يسار ، عن عبد الله بن سلام ـ أو : عن أبى سلمة ، عن عبد الله بن سلام (٤) .

قلت : وهكذا رواه الإمام أحمد ، عن يَعْمَر ، عن ابن المبارك ، به (٥) .

---

(١) المسند (٥/ ٤٥٢) .

(٢) فى أ : « السرورى » .

(٣) زيادة من أ .

(٤) سنن الترمذى برقم (٣٣٠٩) .

(٥) المسند (٥/ ٤٥٢) .

قال الترمذى : وروى الوليد بن مسلم هذا الحديث عن الأوزاعى ، نحو رواية محمد بن كثير .

قلت : وكذا رواه الوليد بن يزيد ، عن الأوزاعى ، كما رواه ابن كثير .

قلت : وقد أخبرنى بهذا الحديث الشيخ المسند أبو العباس أحمد بن أبى طالب الحجار قراءة عليه وأنا أسمع ، أخبرنا أبو المُنَجَّا عبد الله بن عُمَر بن اللَّتى [١] ، أخبرنا أبو الوقت عبد الأول بن عيسى ابن شُعَيب السَّجْزىّ قال : أخبرنا أبو الحسن عبد الرحمن بن المظفر بن محمد بن داود الداودى، أخبرنا أبو محمد عبد الله بن أحمد بن حَمَّوَيَة السرَخسِىّ ، أخبرنا عيس بن عُمَر بن عمران السمرقندى ، أخبرنا الإمام الحافظ أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمى بجميع مسنده [٢] ، أخبرنا محمد بن كثير ، عن الأوزاعى . . . فذكر بإسناده مثله ، وتسلسل لنا قراءتها إلى شيخنا أبى العباس الحجار ، ولم يقرأها ، لأنه كان أميا ، وضاق الوقت عن تلقينها إياه . ولكن أخبرنى الحافظ الكبير أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى ، رحمه الله : أخبرنا القاضى تقى الدين سليمان بن الشيخ أبى عمر ، أخبرنا أبو المنجا بن اللَّتى [٣] . . . فذكره بإسناده ، وتَسلل [٤] لى من طريقة، وقرأها على بكمالها ، ولله الحمد والمنة .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ (٣) إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ (٤) ﴾ .

تقدم الكلام على قوله : ﴿ **سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾ غير مرة ، بما أغنى عن إعادته .

وقوله : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ** ﴾ ؟ إنكار على من يَعد عدةً ، أو يقول قولا لا يفى به ، ولهذا استد بهذه الآية الكريمة من ذهب من علماء السلف إلى أنه يجب الوفاء بالوعد مطلقا ، سواء ترتب عليه غُرم للموعود أم لا . واحتجوا أيضا من السنة بما ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « آية المنافق ثلاث :إذا حَدَّث كذب ،وإذا وَعَد أخلف ، وإذا اؤتمن خان»[٥] . وفى الحديث الآخر فى الصحيح : « أربع من كن فيه كان منافقا خالصاً ، ومن كانت فيه واحدة منهن كانت فيه خَصْلَة من نفاق حتى يَدَعها » [٦]. ـ فذكر منهن إخلاف الوعد . وقد استقصينا الكلام على هذين الحديثين فى أول « شرح البخارى » ، ولله الحمد والمنة . ولهذا أكد تعالى هذا الإنكار عليهم بقوله : ﴿ **كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ** ﴾ .

(١) فى أ : « الليثى » . (٢) فى أ : « سنده » . (٣) فى أ : « الليثى » .

(٤) فى أ : « وتسلسل » .

(٥) صحيح البخارى برقم (٣٣) وصحيح مسلم برقم (٥٩) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٦) صحيح البخارى برقم (٣٤) وصحيح مسلم برقم (٥٨) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما .

وقد روى الإمام أحمدُ وأبو داود ، عن عبد الله بن عامر بن ربيعة قال : أتانا رسول الله ﷺ [فى بيتنا] (١) وأنا صبى قال : فذهبت لأخرج لألعب ، فقالت أمى : يا عبد الله : تعال أعطك . فقال لها رسول الله ﷺ : « وما أردت أن تُعطيه ؟ » . قالت : تمرا . فقال : « أما إنك لو لم تفعلى كُتبت عليك كِذْبة » (٢) .

وذهب الإمام مالك ،رحمه الله ، إلى أنه إذا تعلق بالوعد غُرم على الموعود وجب الوفاء به ، كما لو قال لغيره : « تزوج ولك على كل يوم كذا » . فتزوجَ ، وجب عليه أن يعطيه ما دام كذلك ، لأنه تعلق به حق آدمى ، وهو مبنى على المضايقة . وذهب الجمهور إلى أنه لا يجب مطلقا ، وحملوا الآية على أنها نزلت حين تمنوا فَرضيَّة الجهاد عليهم ، فلما فرض نكل عنه بعضهم ، كقوله تعالى : ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً . أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ** ﴾ [النساء : ٧٧، ٧٨] . وقال تعالى : ﴿ **وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ** ﴾ الآية [محمد : ٢٠] وهكذا هذه الآية معناها ، كما قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ** ﴾ ، قال : كان ناس من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد يقولون : لَوَدِدْنا أن الله ــ عز وجل ــ دلنا على أحب الأعمال إليه، فنعملَ به . فأخبر الله نبيه أن أحب الأعمال إيمانٌ به (٣) لا شك فيه ، وجهاد أهل معصيته الذين خالفوا الإيمان ولم يقروا به. فلما نزل الجهاد كره ذلك أناس من المؤمنين ، وشق عليهم أمره ، فقال الله سبحانه : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ** ﴾ ؟ . وهذا اختيار ابن جرير (٤) .

وقال مقاتل بن حيّان :قال المؤمنون : لو نعلم أحبّ الأعمال إلى الله لعملنا به . فدلهم الله على أحب الأعمال إليه ، فقال : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا** ﴾ ، فبين لهم ، فابتلوا يوم أحد بذلك ،فولوا عن النبى ﷺ مدبرين ، فأنزل الله فى ذلك : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ** ﴾ ؟ وقال : أحبكم إلى من قاتل فى سبيلى .

ومنهم من يقول : أنزلت فى شأن القتال ، يقول الرجل : «قاتلت» ، ولم يقاتل (٥) . «وطعنت» ، ولم يطعن و«ضربت» ، ولم يضرب و«صبرت» ، ولم يصبر .

وقال قتادة ، والضحاك : نزلت (٦) توبيخاً لقوم كانوا يقولون : « قتلنا ، ضربنا ، طعنا ، وفعلنا» . ولم يكونوا فعلوا ذلك .

---

(١) زيادة من المسند .

(٢) المسند (٣/ ٤٤٧) وسنن أبى داود برقم (٤٩٩١) .

(٣) فى م :« إيمان بالله » .

(٤) تفسير الطبرى (٢٨/ ٥٦) .

(٥) فى م : « ولم أقاتل » .

(٦) فى م :« أنزلت » .

وقال ابن يزيد : نزلت فى قوم من المنافقين ، كانوا يَعدون المسلمين النصرَ ، ولا يَفُون لهم بذلك.

وقال مالك ، عن زيد بن أسلم : ﴿ **لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُون** ﴾ ؟ ، قال : فى الجهاد .

وقال ابن أبى نَجيح ، عن مجاهد : ﴿ **لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُون** ﴾ إلى قوله : ﴿ **كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ** ﴾ فما بين ذلك : فى نفر من الأنصار ،فيهم عبد الله بن رواحة ، قالوا فى مجلس : لو نعلم أىّ الأعمال أحبّ إلى اللّه ، لعملنا بها حتى نموت .فأنزل الله هذا فيهم . فقال عبد الله بن رواحة : لا أبرح (١) حبيسا فى سبيل الله حتى أموت . فقتل شهيداً .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا فروة بن أبى المغراء ، حدثنا على بن مُسْهِر (٢) ، عن داود بن أبى هند ،عن أبى حَرْب بن أبى الأسود الدِّيلى (٣) ، عن أبيه قال : بعث أبو موسى إلى قراء أهل البصرة ، فدخل عليه منهم ثلاثمائة رجل ، كلهم قد قرأ القرآن ، فقال : أنتم قراء أهل البصرة وخيارهم . وقال : كنا نقرأ سورة كنا نشبهها بإحدى المسبحات ، فأنسيناها ، غير أنى قد حفظت منها: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُون** ﴾ . فتكتب شهادة فى أعناقكم ، فتسألون عنها يوم القيامة .

ولهذا قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ** ﴾ ، فهذا إخبار منه تعالى بمحبة عباده المؤمنين إذا اصطفوا مواجهين لأعداء الله فى حومة الوغى ، يقاتلون فى سبيل الله مَن كفر بالله ،لتكون كلمة الله هى العليا ، ودينه هو الظاهر العالى على سائر الأديان.

قال الإمام أحمد : حدثنا على بن عبد الله ، حدثنا هُشَيْم ، قال مُجالد أخبرنا عن أبى الودَّاك، عن أبى سعيد الخدرى ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاث يضحك الله إليهم : الرجل يقوم من الليل ، والقوم إذا صفوا للصلاة ، والقوم إذا صفوا للقتال » .

ورواه ابن ماجة من حديث مجالد ، عن أبى الوَدَّاك جبر بن نوف ، به (٤) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أبو نُعَيم الفضل بن دُكَيْن ، حدثنا الأسود ـ يعنى ابن شيبان ـ حدثنى يزيد بن عبد الله بن الشِّخِّير قال : قال مُطرِّف : كان يبلغنى عن أبى ذر حديث كنت أشتهى لقاءه ، فلقيته فقلت : يا أبا ذر ، كان يبلغنى عنك حديث ، فكنت أشتهى لقاءك ، فقال : لله أبوك ! فقد لقيت ، فهات . فقلت : كان يبلغنى عنك أنك تزعم أن رسول الله ﷺ حدثكم أن الله يحب ثلاثة ويبغض ثلاثة ؟ قال : أجل ، فلا إخالنى أكذب على خليلى ﷺ . قلت : فمن هؤلاء الثلاثة الذين يحبهم الله ؟ قال : رجل غزا فى سبيل الله ، خرج محتسبا مجاهدا فلقى العدو فقتل ، وأنتم تجدونه فى كتاب الله المنزل ، ثم قرأ ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ** ﴾ . . . وذكر الحديث .

---

(١) فى أ :« فما أبرح » . (٢) فى أ : « شهر » . (٣) فى أ : « الديلمى » .

(٤) المسند (٣/ ٨٠) وسنن ابن ماجة برقم (٢٠٠) وقال البوصيرى فى الزوائد (٨٧/١) :« هذا إسناد فيه مقال، مجالد بن سعيد وإن أخرج له مسلم فى صحيحه فإنما روى له مقروناً بغيره قال ابن عدى : عامة ما يرويه غير محفوظ » .

هكذا أورد هذا الحديث من هذا الوجه بهذا السياق ، وبهذا اللفظ ، واختصره . وقد أخرجه الترمذى والنسائى من حديث شعبة ، عن منصور بن المعتمر ، عن رِبْعَى بن حِرَاش ، عن زيد بن ظَبْيان ، عن أبى ذَرّ بأبسط من هذا السياق وأتم [١] وقد أوردناه فى مواضع أخر ،ولله الحمد .

وعن كعب الأحبار أنه قال : يقول الله تعالى لمحمد ﷺ : « عبدى المتوكل المختار ليس بفَظّ ولا غَليظ ولا سَخَّاب فى الأسواق ، ولا يجزى بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويغفر ، مولده بمكة ، وهجرته بطابة،وملكه بالشام ، وأمته الحمادون يحمَدُون الله على كلّ حال ، وفى كل منزلة ، لهم دَوِىٌّ كدوى النحل فى جو السماء بالسحَر ، يُوَضّون أطرافهم ، ويأتزرون على أنصافهم ، صفهم فى القتال مثل صفهم فى الصلاة » . ثم قرأ : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ** ﴾ ، « رعاة الشمس ، يصلون الصلاة حيث أدركتهم، ولو على ظهر دابة » رواه ابن أبى حاتم .

وقال سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا** ﴾ قال : كان رسول الله ﷺ لا يقاتل العدو إلا أن يصافهم ، وهذا تعليم من الله للمؤمنين . قال : وقوله : ﴿ **كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ** ﴾ : ملتصق بعضه فى بعض ، من الصف فى القتال .

وقال مقاتل بن حيان : ملتصق بعضه إلى بعض .

وقال ابن عباس : ﴿ **كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ** ﴾ : مُثَبّت ، لا يزول ، ملصق بعضه ببعض .

وقال قتادة : ﴿**كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ** ﴾ : ألم تر إلى صاحب البنيان ، كيف لا يحب أن يختلف بنيانه ؟ فكذلك الله عز وجل [يحب أن] [٢] لا يختلف أمره ،وإن الله صف المؤمنين فى قتالهم وصفَّهم فى صلاتهم ، فعليكم بأمر الله ، فإنه عصمة لمن أخذ به . أورد ذلك كله ابن أبى حاتم .

وقال ابن جرير : حدثنى سعيد بن عَمرو السكونى ، حدثنا بَقِيَّة بن الوليد ،عن أبى بكر بن أبى مريم ، عن يحيى بن جابر الطائى ، عن أبى بحرية [٣] قال : كانوا يكرهون القتال على الخيل ، ويستحبون القتال على الأرض ، لقول الله عز وجل : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ** ﴾ قال : وكان أبو بحرية [٤] يقول : إذا رأيتمونى التفتُّ فى الصف فَجَئُوا فى لَحْيى [٥] .

﴿ **وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٥) وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن**

---

(١) سنن الترمذى برقم (٢٥٦٨) وسنن النسائى (٥/ ٨٤،٣/ ٢٠٧) وقال الترمذى :« هذا حديث صحيح » .

(٢) زيادة من م ، أ . (٣) فى أ : « عن أبى يحيى به » . (٤) فى أ : « أبو بحيرة » .

(٥) تفسير الطبرى (٢٨/ ٥٧) .

بَعْدِى اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٦) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله وكليمه موسى بن عمران عليه السلام أنه قال لقومه : ﴿ **لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ** ﴾ أى : لم توصلون الأذى إلىّ وأنتم تعلمون صدقى فيما جئتكم به من الرسالة ؟ . وفى هذا تسلية لرسول الله ﷺ فيما أصاب [1] من الكفار من قومه وغيرهم ، وأمر له بالصبر ؛ ولهذا قال : « رحمة الله على موسى : لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر»[2] .وفيه نهى للمؤمنين أن ينالوا من النبى ﷺ أو يُوَصّلوا إليه أذى ، كما قال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا** ﴾ [الأحزاب :٦٩] .

وقوله : ﴿ **فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ** ﴾ أى : فلما عدلوا عن اتباع الحق مع علمهم به ، أزاغ الله قلوبهم عن الهدى ، وأسكنها الشك والحيرة والخذلان ، كما قال تعالى : ﴿ **وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ** ﴾ [الأنعام : ١١٠] وقال ﴿ **وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا** ﴾ [النساء : ١١٥] ولهذا قال الله تعالى فى هذه الآية : ﴿ **وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ** ﴾ .

وقوله : ﴿ **وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِى إِسْرَائِيلَ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى اسْمُهُ أَحْمَدُ** ﴾ يعنى : التوراة قد بَشَّرَت بى ، وأنا مصداقُ ما أخبرت عنه، وأنا مُبَشِّر بمن بعدى ، وهو الرسول النبى الأمى العربى المكى أحمد . فعيسى ، عليه السلام ، هو خاتم أنبياء بنى إسرائيل ، وقد أقام [3] فى ملأ بنى إسرائيل مبشراً بمحمد ، وهو أحمد خاتم الأنبياء والمرسلين ، الذى لا رسالة بعده ولا نبوة .وما أحسن ما أورد البخارى الحديثَ الذى قال فيه:

حدثنا أبو اليمان ، حدثنا شعيب ، عن الزهرى قال : أخبرنى محمد بن جُبَير بن مُطعم ، عن أبيه قال : سمعت رسولَ الله ﷺ يقول : « إن لى أسماء : أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الماحى الذى يَمحُو الله به الكفر ، وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى ، وأنا العاقب » .

ورواه مسلم ، من حديث الزهرى ، به نحوه [4] .

وقال أبو داود الطيالسى : حدثنا المسعودى ، عن عمرو بن مُرّة ، عن أبى عُبَيدة ، عن أبى موسى قال : سَمَّى لنا رسول الله ﷺ نَفسه أسماءَ ، منها ما حفظنا فقال : « أنا محمد ، وأحمد ، والحاشر ، والمقفى ، ونبى الرحمة ،والتوبة ،والملحمة » .

ورواه مسلم من حديث الأعمش ، عن عمرو بن مرة ، به [5] .

---

(١) فى م : « فيما أصابه » .

(٢) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٣٤٠٥) ومسلم فى صحيحه برقم (١٠٦٢) من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه .

(٣) فى م: « وقد قام » .

(٤) صحيح البخارى برقم (٤٨٩٦) وصحيح مسلم برقم (٢٣٥٤) .

(٥) مسند الطيالسى برقم (٤٩٢) وصحيح مسلم برقم (٢٣٥٥) .

وقد قال الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِى يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ﴾ [الأعراف:١٥٧] وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [آل عمران:٨١]

قال ابن عباس : ما بعث الله نبياً إلا أخذ عليه العهد : لئن بعث محمد وهو حى ليتبعنه ، وأخذ عليه أن يأخذ على أمته لئن بعث محمد وهم أحياء ليتبعنه وينصرنه .

وقال محمد بن إسحاق : حدثنى ثور بن يَزيد ، عن خالد بن مَعْدَانَ ، عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم قالوا : يا رسول الله ، أخبرنا عن نفسك . قال : « دعوة أبى إبراهيم ، وبُشْرَى عيسى ، ورأت أمى حين حملت بى (١) كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور بصرى من أرض الشام » (٢) .

وهذا إسناد جيد . ورُوى له شواهد من وجوه أخر ، فقال الإمام أحمد :

حدثنا عبد الرحمن بن مهدى ، حدثنا معاوية بن صالح ، عن سعيد بن سُوَيد الكلبى ، عن عبد الأعلى بن هلال (٣) السلمى ، عن العرْباض بن سارية قال : قال رسول الله ﷺ : « إنى عند الله لخاتم النبيين ، وإن آدم لمنجَدلُ فى طِينته ، وسأنبئكم بأول ذلك دَعْوة أبى إبراهيم ، وبشارة عيسى بى، ورؤيا أمى التى رأت ، وكذلك أمهات النبيين يَرَين » (٤) .

وقال أحمد أيضا : حدثنا أبو النضر ، حدثنا الفرج بن فضالة ، حدثنا لقمان بن عامر قال : سمعت أبا أمامة قال : قلتُ يا نبى الله ، ما كان بدء أمرك ؟ قال : « دعوة أبى إبراهيم ، وبُشْرَى عيسى ، ورأت أمى أنه يخرجُ منها نور أضاءت له قصورُ الشام»(٥).

وقال أحمد أيضا : حدثنا حسن بن موسى : سمعت خُدَيجاً أخا زهير بن معاوية ، عن أبى إسحاق، عن عبد الله بن عتبة ، عن عبد الله بن مسعود قال : بعثنا رسول الله ﷺ إلى النجاشى ونحن نحوٌ من ثمانين رجلا ، منهم : عبد الله بن مسعود ، وجعفر ، وعبد الله بن [عُرْفُطَة] (٦) ، وعثمان بن مظعون ، وأبو موسى . فأتوا النجاشى ، وبعثَت قريش عَمرو بن العاص ، وعمارة بن الوليد بهدية ، فلما دخلا على النجاشى سَجَدا له ، ثم ابتدراه عن يمينه وعن شماله ، ثم قالا له : إن نفراً من بنى عمنا نزلوا أرضك ، ورغبوا عنا وعن ملتنا . قال : فأين هم ؟ قالا : هم فى أرضك، فابعث إليهم. فبعث إليهم . فقال جعفر : أنا خطيبكم اليوم . فاتبعوه فسلَّم ولم يسجد ،

---

(١) فى م:« حملتنى » .

(٢) رواه الحاكم فى المستدرك (٢/ ٦٠٠) من طريق يونس بن بكير عن ابن إسحاق به ، وقال :« خالد بن معدان من خيار التابعين ، صحب معاذ بن جبل فمن بعده من الصحابة ، فإذا أسند حديث إلى الصحابة فإنه صحيح الإسناد وإن لم يخرجاه » . قلت : وقد ورد موصولاً كما سيأتى فى رواية أحمد .

(٣) فى أ :« بلال » .

(٤) المسند (٤/ ١٢٧) وسعيد بن سويد لم يوثقه غير ابن حبان .

(٥) المسند (٥/ ٢٦٢) .

(٦) زيادة من المسند ، ومكانه بياض فى هـ ، م ، أ .

فقالوا له : ما لك لا تسجد للملك ؟ قال : إنا لا نسجد إلا لله عز وجل . قال : وما ذاك ؟ قال : إن الله بعث إلينا رسوله ، فأمرنا ألا نسجد لأحد إلا لله عز وجل ، وأمرنا بالصلاة والزكاة .

قال عمرو بن العاص : فإنهم يخالفونك فى عيسى ابن مريم . قال : ما تقولون فى عيسى ابن مريم وأمه ؟ قالوا : نقول كما قال الله عز وجل : هو كلمة الله وروحه ألقاها إلى العذراء البَتُول ، التى لم يمسها بَشَر ولم يَفْرِضْها (١) ولد . قال : فرفع عوداً من الأرض ثم قال : يا معشر الحبشة والقسيسين والرهبان ، والله ما يزيدون على الذى نقول فيه ، ما يساوى هذا . مرحبا بكم وبمن جئتم من عنده ، أشهد أنه رسول الله ، وأنه الذى نجد فى الإنجيل ، وأنه الذى بشر به عيسى ابن مريم . انزلوا حيث شئتم ، والله لولا ما أنا فيه من الملك لأتيته حتى أكون أنا أحمل نعليه وأوضئه . وأمَرَ بهدية الآخرَين فردت إليهما ، ثم تعجل عبد الله بن مسعود حتى أدرك بدراً ، وزعم أن النبى ﷺ استغفر له حين بلَغه موته (٢) .

وقد رُويت هذه القصةُ عن جعفر وأم سلمة رضى الله عنهما ، وموضع ذلك كتاب السيرة . والمقصد أن الأنبياء عليهم السلام لم تزل تنعته وتحكيه فى كتبها على أممها ، وتأمرهم باتباعه ونصره وموازرته إذا بعث . وكان ما اشتهر الأمر فى أهل الأرض على لسان إبراهيم الخليل والد الأنبياء بعده، حين دعا لأهل مكة أن يبعث الله فيهم رسولا منهم ، وكذا على لسان عيسى ابن مريم ؛ ولهذا قالوا : « أخبرنا عن بَدْء أمرك » يعنى : فى الأرض ، قال : « دعوة أبى إبراهيم ، وبشارة عيسى ابن مريم ، ورؤيا أمى التى رأت » أى : ظهر فى أهل مكة أثر ذلك والإرهاص بذكره صلوات الله وسلامه عليه .

وقوله : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ قال ابن جريج وابن جرير : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم﴾ أحمد ، أى : المبشر به فى الأعصار المتقادمة ، المنَّوه بذكره فى القرون السالفة ، لما ظهر أمره وجاء بالبينات قال الكفرة المخالفون : ﴿ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ .

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الإِسْلامِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٧) يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٨) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٩) ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الإِسْلامِ ﴾ أى : لا أحد أظلم ممن يفترى الكذب على الله (٣) ، ويجعل له أندادا وشركاء ، وهو يدعى إلى التوحيد والإخلاص ؛ ولهذا قال : ﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ .

---

(١) فى أ : « ولم يعترضها ».
(٢) المسند (١/ ٤٦١) .
(٣) فى م : « يفترى على الله الكذب » .

ثم قال : ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ أى : يحاولون [١] أن يَردُّوا الحق بالباطل ، ومثلهم فى ذلك كمثل من يريد أن يطفئ شعاع الشمس بفيه ،وكما أن هذا مستحيل كذلك ذاك مستحيل [٢] ؛ ولهذا قال : ﴿ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ . هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ ، وقد تقدم الكلام على هاتين الآيتين فى سورة «براءة» ، بما فيه كفاية ، ولله الحمد والمنة [٣] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١٣) ﴾ .

تقدم فى حديث عبد الله بن سلام أن الصحابة ، رضى الله عنهم ، أرادوا أن يسألوا عن أحب الأعمال إلى الله عز وجل ليفعلوه ، فأنزل الله هذه السورة ، ومن جملتها هذا الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ ثم فسر هذه التجارة العظيمة التى لا تبور ، التى هى محصلة للمقصود ومزيلة للمحذور فقال : ﴿ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أى : من تجارة الدنيا ، والكد لها والتصدى لها وحدها .

ثم قال : ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ أى : إن فعلتم ما أمرتكم[٤] به ودللتكم عليه ، غفرت لكم الزلات ، وأدخلتكم الجنات ، والمساكن الطيبات ، والدرجات العاليات ؛ ولهذا قال : ﴿ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ .

ثم قال : ﴿ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ﴾ أى : وأزيدكم على ذلك زيادة تحبونها ، وهى : ﴿ نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾ أى : إذا قاتلتم فى سبيله ونصرتم دينه ، تكفل الله بنصركم . قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد : ٧] . وقال تعالى : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج : ٤٠] .

وقوله : ﴿ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾ أى : عاجل . فهذه الزيادة هى خير الدنيا موصول بنعيم الآخرة ، لمن أطاع الله ورسوله ، ونصر الله ودينه؛ ولهذا قال : ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

---

(١) فى أ : « أى يجادلون » .
(٢) فى م ،أ :« كذاك ذلك » .
(٣) فى أ : « والله أعلم » .
(٤) فى أ :« ما آمركم » .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ (١٤) ﴾ .

يقول تعالى آمرا عباده المؤمنين أن يكونوا أنصار الله فى جميع أحوالهم ، بأقوالهم وأفعالهم وأنفسهم وأموالهم ، وأن يستجيبوا لله ولرسوله ، كما استجاب الحواريون لعيسى حين قال : **﴿ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ ﴾** ؟ أى : من مُعينى فى الدعوة إلى الله عز وجل ؟ **﴿ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ ﴾** ـ وهم أتباع عيسى عليه السلام ـ : **﴿ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ ﴾** أى : نحن أنصارك على ما أرسلت به ومُوَازروك على ذلك ؛ ولهذا بعثهم دعاةً إلى الناس فى بلاد الشام فى الإسرائيليين واليونانيين . وهكذا كان رسول الله ﷺ يقول فى أيام الحج : « من رجل يُؤوينى حتى أبلغ رسالة ربى ، فإن قريشا قد منعونى أن أبلغ رسالة ربى » [(١)] . حتى قيَّض الله عز وجل له الأوس والخزرج من أهل المدينة ، فبايعوه ووازروه، وشارطوه أن يمنعوه من الأسود والأحمر إن هو هاجر إليهم ، فلما هاجر إليهم بمن معه من أصحابه وَفَوا له بما عاهدوا الله عليه ؛ ولهذا سماهم الله ورسوله : الأنصار ،وصار ذلك علما عليهم، رضى الله عنهم ، وأرضاهم .

وقوله : **﴿ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ ﴾** أى : لما بلغ عيسى ابن مريم عليه السلام رسالة ربه إلى قومه ، ووازره مَن وازره من الحواريين ، اهتدت طائفة من بنى إسرائيل بما جاءهم به، وضلت طائفة فخرجت عما جاءهم به ، وجحدوا نبوته ، ورموه وأمه بالعظائم ، وهم اليهود ـ عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة ـ وغلت فيه طائفة ممن اتبعه ،حتى رفعوه فوق ما أعطاه الله من النبوة ، وافترقوا فِرَقا وشيَعاً ، فمن قائل منهم :إنه ابن الله . وقائل : إنه ثالث ثلاثة: الأب ، والابن ،وروح القدس . ومن قائل : إنه الله . وكل هذه الأقوال مفصلة فى سورة النساء .

وقوله : **﴿ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ ﴾** أى : نصرناهم على من عاداهم من فِرَق النصارى ، **﴿ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾** أى : عليهم ، وذلك ببعثة محمد ﷺ ، كما قال الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله .

حدثنى أبو السائب ، حدثنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن المِنْهال ـ يعنى ابن عمرو ـ عن سعيد بن جُبَير ، عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لما أراد الله عز وجل أن يرفع عيسى إلى السماء ، خرج إلى أصحابه وهم فى بيت اثنا عشر رجلا ، من عين فى البيت ، ورأسه يقطر ماء ، فقال : إن منكم من يكفر بى اثنتى عشر[(٢)] مرة بعد أن آمن بى . قال : ثم قال : أيكم يلقى عليه شبهى فيقتل مكانى ،ويكون معى فى درجتى ؟ قال : فقام شاب من أحدثهم سنا فقال : أنا . قال : فقال له : اجلس . ثم أعاد عليهم ، فقام الشاب فقال : أنا . فقال له : اجلس . ثم عاد عليهم

(١) رواه الإمام أحمد فى المسند (٣/ ٣٢٢) من حديث جابر رضى الله عنه .
(٢) فى م ، أ : « اثنتى عشرة » .

فقام الشـاب ، فقال : أنا . فقال : نعم ، أنت ذاك . قال : فـألقى عليه شبه عيسى ، ورُفع عيسى عليه السلام من روزَنة فى البيت إلى السماء ، قال : وجاء الطلَبُ من اليهود ، فـأخذوا شِبْهَه فقتلوه وصلبوه ، وكفر به بعضـهم اثنتى عشرة مرة بعد أن آمن به ، فتفرقوا ثلاث فـرق . قالت فرقة : كان الله فينا ما شاء ، ثم صعد إلى السماء . وهؤلاء اليعقوبية . وقالت فرقة : كان فينا ابن الله ما شاء ، ثم رفعه إليـه وهؤلاء النسطورية ، وقالت فرقة كان فيـنا عبد الله ورسوله ما شاء الله ثم رفـعه إليه ، وهؤلاء المسلمون ، فتظاهرت الكافـرتان على المسلمة ، فقتلوها ، فلم يزل الإسلام طامـساً حتى بعث الله محمداً ﷺ ، ﴿ **فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِنْ بَنِى إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ** ﴾ يعنى : الطائفة التى كفرت من بنى إسـرائيل فى زمن عيسى ، والطائفـة التى آمنت فى زمن عيـسى ، ﴿ **فَأَيَّدْنَا الَّذِيـنَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ** ﴾ ، بإظهار محمد ﷺ دينهم على دين الكفار ﴿ **فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ** ﴾ .

هذا لفظه فى كتابه عند تفسير هذه الآية الكـريمة . وهكذا رواه النسائى عند تفسير هذه الآية من سننه ، عن أبى كُرَيْب محمد بن العلاء ، عن أبى معاوية ، بمثله سواء [١] .

فأمـة محمد ﷺ لا يزالون ظاهرين على الحق ، حـتى يأتى أمر الله وهم كذلك ، وحـتى يقاتل آخرهم الدجال مع المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام ، كما وردت [بذلك][٢] الأحاديث الصحاح ، والله أعلم .

---

(١) تفسير الطبرى (٢٨/ ٦٠) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٥٩١) .

(٢) زيادة من م،أ .

/ سورة الصفّ [١٩٠و]

مدنيّة، وقيل:[١] مكّيّة، وهي أربعَ عشرةَ آيةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢﴾

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ الكلام فيه كالذي مرّ في نظيره.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ رُوي أنّ المسلمين قالوا: لو عَلِمنا أحبَّ الأعمال إلى الله تعالى لبذلنا فيه أموالنا وأنفسَنا، فلمّا نزل الجهادُ كرهوه، فنزلت.[٢] وما قيل: مِن أنّ النازل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا﴾،[٣] بيّنُ الاختلال. ورُوي أنّهم قالوا: يا رسول الله لو نعلم أحبَّ الأعمال إلى الله تعالى لسارعنا إليه، فنزلت: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾،[٤] فولّوا يوم أحد. وفيه التزامُ أنّ ترتيب الآيات الكريمةِ ليس على ترتيب النزول.

وقيل: لمّا أخبر الله تعالى بثواب شهداء بدر قالتِ الصحابة: اللّهمّ اشهد لئن لقِينا قتالًا لنُفرّغن فيه وسعنا ففرّوا يوم أحد، فنزلت.[٥] وقيل: إنّها نزلت فيمن يتمدّح كاذبًا، حيث كان الرجل يقول: "قتلتُ" ولم يقتل، و"طعنتُ" ولم يطعَن،

---

١ س – مدنيّة، وقيل.

٢ بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ٦٠٦/٢٢–٦٠٧؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٠٧/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٣٩٤/٤.

٣ كما في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٠٠/٣.

٤ الصف، ١٠/٦١–١١.

٥ مرويّ عن محمّد بن كعب في معالم التنزيل للبغوي، ١٠٧/٨؛ وبلا عزو في الكشّاف للزمخشري، ٣٩٤/٤.

وهكذا.[١] وقيل: كان رجل قد آذى المسلمين يوم بدر ونكى فيهم، فقتله صهيبٌ وانتحل قَتْلَه آخرُ، فنزلت في المُنتحِل.[٢] وقيل: نزلت في المنافقين،[٣] ونداؤهم بالإيمان تهكُّم بهم وبإيمانهم.[٤] وليس بذاك كما ستعرفه.

و﴿لِمَ﴾ مركَّبة مِن "اللام" الجارّة و"ما" الاستفهاميّة، قد حُذفت ألفها تخفيفًا لكثرة استعمالهما معًا كما في "عمَّ" و"فيمَ" ونظائرهما. معناها لأيّ شيء تقولون نفعل ما لا تفعلون مِن الخير والمعروف، على أنّ مدار التعيير والتوبيخ في الحقيقة عدمُ فعلهم، وإنّما وُجِّها إلى قولهم تنبيهًا على تضاعف معصيتهم ببيان أنّ المُنكَر ليس ترك الخير الموعود فقط؛ بل الوعد به أيضًا، وقد كانوا يحسبونه معروفًا. ولو قيل: "لِمَ لا تفعلون ما تقولون" لفُهِم منه[٥] أنّ المُنكَر هو تركُ الموعود.

﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٌ مَّرۡصُوصٌ ۝٤﴾

﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ بيان لغاية قُبح ما فعلوه وفرطِ سماجته. و﴿كَبُرَ﴾ مِن باب "نِعمَ" و"بئس" فيه ضمير مبهَم مفسَّر بالنكرة بعده، و﴿أَن تَقُولُواْ﴾ هو المخصوص بالذمّ. وقيل: قُصد فيه التعجّب مِن غير لفظه، وأُسنِد إلى ﴿أَن تَقُولُواْ﴾. ونُصِب ﴿مَقْتًا﴾ على تفسيره دلالة على أنّ قولهم: ﴿مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ مقتٌ خالص لا شَوب فيه كِبْر عند مَن يُحقَّر دونه كلُّ عظيم.

[١٩٠ظ] وقوله تعالى: / ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا﴾ بيان لِما هو مَرضيّ عنده تعالى بعد بيان ما هو ممقوت عنده. وهذا صريح في أنّ ما قالوه عبارةٌ عن الوعد بالقتال لا عمّا تقوّله المتمدّح أو انتحله المنتحِل أو ادّعاه المنافق،

---

[١] مرويّ عن قتادة والضحّاك في جامع البيان للطبري، ٢٢/٦٠٨-٦٠٩؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٨/١٠٧؛ وبلا عزو في الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٩٤.

[٢] لم أجِده في مظانّه. وهو بلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٩٤.

[٣] مرويّ عن ابن زيد في جامع البيان للطبري، ٢٢/٦٠٩؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٨/١٠٧؛ وعن الحسن في الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٩٤.

[٤] ذكر ذلك الزمخشري في الكشّاف، ٤/٣٩٤.

[٥] س - منه.

وأنّ مناط التعيير والتوبيخ هو إخلافهم لا وعدهم كما أشيرَ إليه. وقُرئ: "يُقَاتَلُونَ"[١] بفتح "التاء"، و"يُقَتِّلُونَ".[٢] و﴿صَفًّا﴾ مصدر وَقَع موقعَ الفاعل أو المفعول، ونصبُه على الحاليّة مِن فاعل ﴿يُقَٰتِلُونَ﴾ أي: صافّين أنفسَهم أو مصفوفين.

وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ حال مِن المستكنّ في الحال الأولى، أي: مشبّهين في تراصّهم مِن غير فُرجة وخُلَل ببنيان رُصّ بعضُه إلى بعض ورُصِف حتّى صار شيئًا واحدًا.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥﴾

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ كلام مستأنَف مقرِّر لِما قبله مِن شَناعة تَرْك القتال. و﴿إِذْ﴾ منصوب على المفعوليّة بمضمر خُوطب به النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بطريق التلوين، أي: واذكر لهؤلاء المعرِضين عن القتال وقتَ قولِ موسى لبني إسرائيلَ حين ندبهم إلى قتال الجبابرة بقوله: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾ [المائدة، ٥/٢١]، فلم يمتثلوا بأمره وعصَوه أشدَّ عصيان حيث: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾ [المائدة، ٥/٢٢]، إلى قوله تعالى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة، ٥/٢٤]، وأصرُّوا على ذلك وآذَوه عليه السلام كلَّ الأذيّة.

﴿يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي﴾ أي: بالمخالفة والعصيان فيما أمرتكم به. وقوله تعالى: ﴿وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ جملة حاليّة مؤكِّدة لإنكار الإيذاءِ ونفيِ سببه. و﴿قَد﴾ لتحقيق العِلم. وصيغة المضارع للدلالة على استمراره، أي: والحال أنكم تعلمون عِلمًا قطعيًّا مستمرًّا بمشاهدة ما ظهر بيدي مِن المعجزات القاهرة التي معظمُها إهلاكُ عدوِّكم وإنجاؤكم مِن ملكته أنّي رسول الله إليكم

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد ين عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٧٢.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عمير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٧٢.

[١٩١و] لأرشدكم / إلى خير الدنيا والآخرة، ومِن قضيّة عِلمكم بذلك أن تبالغوا في تعظيمي وتُسارعوا إلى طاعتي.

﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ﴾ أي: أصرُّوا على الزَّيغ عن الحقّ الذي جاء به موسى عليه السلام واستمرُّوا عليه ﴿أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ﴾ أي: صَرفها عن قَبول الحقّ والميلِ إلى الصواب لصَرْف اختيارهم نحو الغَي والضلال.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ اعتراض تذييلي مقرِّر لمضمون ما قبله مِن الإزاغة، ومؤذِن بعلّته، أي: لا يهدي القوم الخارجين عن الطاعة ومنهاجِ الحقّ المصرّين على الغَواية هِدايةً موصِلةً إلى البُغية، لا هِدايةً موصِلةً إلى ما يُوصِل إليها، فإنّها شاملة للكلّ. والمراد بهم إمّا المذكورون خاصّة، والإظهارُ في موقع الإضمار لذمِّهم بالفسق وتعليلِ عدم الهداية به، أو جنسُ الفاسقين وهم داخلون في حُكمهم دخولًا أوّليًا. وأيًّا ما كان فوصفُهم بالفسق ناظرٌ إلى ما في قوله تعالى: ﴿فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة، ٢٥/٥] وقولِه تعالى:[١] ﴿فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة، ٢٦/٥]. هذا هو الذي تقتضيه جزالة النظم الكريم ويرتضيه الذوق السليم.

وأمّا ما قيل بصدد بيان أسبابِ الأذيّة مِن أنّهم كانوا يؤذونه عليه السلام بأنواع الأذى مِن انتقاصه وعيبِه في نفسه وجحودِ آياته وعصيانِه فيما تعود إليهم منافعه وعبادتِهم البقرَ وطلبِهم رؤية الله جهرةً والتكذيبِ الذي هو تضييعُ حقِّ الله وحقِّه،[٢] فممّا لا تعلّق له بالمقام.

﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ۝٦﴾

وقوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾ إمّا معطوف على ﴿إِذۡ﴾ الأولى معمول لعاملها، وإمّا معمول لمضمر معطوف على عاملها. ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾

---

١ س - تعالى.

٢ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٣٩٥/٤.

ناداهم بذلك استمالةً لقلوبهم إلى تصديقه في قوله: ﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ فإنّ تصديقه عليه السلام إيّاها مِن أقوى الدواعي إلى تصديقهم إيّاه.

وقوله تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًا/ بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي﴾ معطوف على ﴿مُصَدِّقًا﴾ داعٍ [١٩١ظ] إلى تصديقه عليه السلام مِثله مِن حيث إنّ البشارة به واقعةٌ في التوراة. والعاملُ فيهما ما في الرسول مِن معنى الإرسالِ لا الجارّ، فإنّه صلة للرسول، والصلات بمَعزِل مِن تضمّن معنى الفعل، وعليه يدور العمل، أي: أُرسِلتُ إليكم حال كوني مصدِّقًا لِما تقدّمني مِن التوراة ومبشِّرًا بمَن يأتي مِن بعدي مِن رسول ﴿ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ أي: محمّد صلّى الله عليه وسلّم. يريد أنّ ديني التصديقُ بكتب الله وأنبيائه جميعًا ممّن تقدّم وتأخّر. وقُرئ: "مِن بَعْديَ"[١] بفتح "الياء".

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: بالمعجزات الظاهرة ﴿قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ مشيرين إلى ما جاء به، أو إليه عليه السلام. وتسميتُه سحرًا للمبالغة، ويؤيّده قراءة مَن قرأ: "هَذَا سَاحِرٌ".[٢]

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧﴾

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ﴾ أي: أيُّ الناس أشدّ ظلمًا ممّن يُدعى إلى الإسلام الذي يُوصله إلى سعادة الدارين فيضع موضعَ الإجابة الافتراءَ على الله عزّ وجلّ بقوله لكلامه الذي هو دعاء عباده إلى الحقّ: هذا سحرٌ، أي: هو أظلم مِن كلّ ظالم، وإن لم يتعرّض ظاهرُ الكلام لنفي المساوي، وقد مرّ بيانُه غيرَ مرّة. وقُرئ: "يُدَّعَى"،[٣] يقال: "دَعاه وادّعاه" مثل "لمسَه والتمسَه".

---

[١] قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب وأبو بكر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٨٧.

[٢] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٢٥٦.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وطلحة. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧٨٨.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: لا يُرشِدهم إلى ما فيه فلاحُهم لعدم توجّههم إليه.

﴿يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ⁽٨⁾﴾

﴿يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ﴾ أي: يُريدون أن يطفئوا دينَه أو كتابَه أو حجّتَه النيِّرة. و"اللام" مزيدة لِما فيها مِن معنى الإرادة تأكيدًا لها، كما زِيدت لِما فيها مِن معنى الإضافة تأكيدًا لها في "لا أبا لك". أو يريدون الافتراء ليطفئوا نور الله. ﴿بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ بطعنهم فيه، مُثِّلتْ حالهم بحال مَن ينفخ في نور الشمس بفيه ليطفئه.

﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾ أي: مبلِّغه إلى غايته بنشره في الآفاق وإعلائه. وقُرئ: "مُتِمٌّ نُورَهُ"[1] بلا إضافة. ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ أي: إرغامًا لهم. والجملة في حيِّز الحال على ما بُيِّن مرارًا.

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ⁽٩⁾﴾

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ بالقرآن أو بالمعجزة ﴿وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾ والملّة الحنيفيّة ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ لِيُغلِبَهُ / على جميع الأديان المخالفة له. ولقد [١٩٢و]
أنجز الله عزّ وعلا وعدَه، حيث جعَله بحيث لم يبقَ دين مِن الأديان إلّا وهو مغلوب مقهور بدين الإسلام. ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾ ذلك. وقُرئ: "هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ نَبِيَّهُ".[2]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ⁽١٠⁾ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ⁽١١⁾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ وقُرئ: "تُنَجِّيكُمْ"[3] بالتشديد.

---

[1] قرأ بها نافع وابن عامر وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣٨٧.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ بن أبي طالب. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧٨٨.

[3] قرأ بها ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٥٩.

وقوله تعالى: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ استئناف وَقَع جوابًا عمّا نشأ ممّا قبله، كأنّهم قالوا: كيف نعمل؟ أو ماذا نصنع؟ فقيل: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾... إلخ. وهو خبرٌ في معنى الأمر، جيء به للإيذان بوجوب الامتثال، فكأنّه قد وَقَع فأُخبِر بوقوعه، ويؤيِّده قراءة مَن قرأ: "آمِنُوا باللهِ وَرَسُولِهِ وَجَاهِدُوا"،[1] وقُرئ: "تُؤمِنُوا" و"تُجَاهِدُوا"[2] على إضمار لام الأمر.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلى ما ذُكر مِن الإيمان والجهاد بقسميه، وما فيه مِن معنى البُعد لِما مرّ سرُّه غيرَ مرّة. ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ على الإطلاق، أو مِن ﴿أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: إن كنتم مِن أهل العِلم، فإنّ الجَهَلة لا يُعتدّ بأفعالهم، أو إن كنتم تعلمون أنّه خير لكم كان خيرًا لكم حينئذ؛ لأنّكم إذا علمتُم ذلك واعتقدتموه أحببتُم الإيمانَ والجهادَ فوق ما تُحبّون أنفسَكم وأموالَكم فتُخلصون وتُفلحون.

﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾

﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ جواب للأمر المدلول عليه بلفظ الخبر، أو لشرطٍ، أو استفهامٍ دلّ عليه الكلام، تقديره: أن تُؤمنوا وتُجاهدوا، أو هل تقبلون أن أدلَّكم يَغفِرْ لكم. وجعلُه جوابًا لـ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾ بعيدٌ؛ لأنّ مجرّد الدلالة لا يُوجِب المغفرة.

﴿وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذُكر مِن المغفرة وإدخالِ الجنّات الموصوفة بما ذُكر مِن الأوصاف الجليلة ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الذي لا فوزَ وراءه.

﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾

﴿وَأُخْرَىٰ﴾ ولكم إلى هذه النِّعم العظيمة نعمةٌ أخرى عاجلة ﴿تُحِبُّونَهَا﴾ وترغبون فيها. وفيه تعريضٌ بأنّهم يُؤثِرون العاجل على الآجل. وقيل: ﴿أُخْرَىٰ﴾

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٧٢.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٧٢.

منصوبة بإضمار "يُعطِكم" أو "تحبّون"، أو مبتدأ خبرُه ﴿نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾،[١] وهو على الأوّل بدل أو بيان، وعلى تقدير النصب خبرُ مبتدأ محذوف. ﴿وَفَتۡحٞ قَرِيبٞ﴾ أي: عاجل، عطفٌ على ﴿نَصۡرٞ﴾ على الوجوه المذكورة. وقُرئ: "نَصْرًا" و"فَتْحًا قَرِيبًا"[٢] على الاختصاص، أو على المصدر، أي: تُنصَرون / نصرًا ويُفتَح لكم فتحًا، أو على البدليّة مِن ﴿أُخۡرَىٰ﴾ على تقدير نصبها، أي: يُعطِكم نعمةً أخرى نصرًا وفتحًا. [١٩٢ظ]

﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ عطفٌ على محذوف، مثل قل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ و﴿وَبَشِّرِ﴾، أو على ﴿تُؤۡمِنُونَ﴾ فإنّه في معنى "آمِنوا"، كأنّه قيل: آمِنوا وجاهدوا أيّها المؤمنون وبشِّرهم يا أيّها الرسول بما وعدتَهم على ذلك عاجلًا وآجلًا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ١٤﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾ وقُرئ: "أَنْصَارًا لله"[٣] بلا إضافة؛ لأنّ المعنى كونوا بعضَ أنصار الله. وقُرئ: "كُونُوا أَنْتُم أَنْصَارَ اللهِ".[٤] ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: مَن جُندي متوجِّهًا إلى نصرة الله؟ كما يقتضيه قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾. والإضافةُ الأولى إضافةُ أحدِ المتشاركين إلى الآخر لِما بينهما مِن الاختصاص، والثانيةُ إضافةُ الفاعل إلى المفعول. والتشبيهُ باعتبار المعنى أي: كونوا أنصار الله كما كان الحواريّون أنصاره حين قال لهم عيسى: مَن أنصاري إلى الله؟ أو قل لهم: كونوا كما قال عيسى للحواريّين. والحواريّون: أصفياؤه، وهم أوّل مَن آمن به، وكانوا اثني عشرَ رجلًا.

---

١ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٤٠٢.
٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن اليماني. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٧٢.
٣ قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٨٧.
٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧٨٩.

﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ أي: بعيسى وأطاعوه فيما أمرهم به مِن نصرة الدين ﴿وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾ أخرى به وقاتلوهم ﴿فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ﴾ أي: قوّيناهم بالحُجّة أو بالسيف، وذلك بعد رفع عيسى عليه السلام، ﴿فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾ غالبين.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة الصفّ كان عيسى مصلّيًا عليه مستغفِرًا له ما دام في الدنيا، وهو يوم القيامة رفيقُه».[١]

---

[١] الكشف والبيان للثعلبي، ٣٤٠/٢٦ (الصف، ١/٦١)؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٢٩٠/٤ (الصف، ١/٦١)؛ الكشّاف للزمخشري، ٣٩٩/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

٦١

سُورَةُ الصَّفِّ

مكية أو مدنية، أربعَ عشْرَة آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿سَبَّحَ لِلهِ ما في السَّماواتِ وما في الأرضِ﴾ أي: نزّهَه ـ فاللام: مزيدة. وجيء بـ «ما» دون «مَن» تغليبًا للأكثر ـ ﴿وهُوَ العَزيزُ﴾ في مُلكه ﴿الحَكيمُ﴾ في صُنعه. ٢ ـ ﴿يا أيُّها الَّذينَ آمَنُوا، لِمَ تَقُولُونَ﴾ في طلب الجِهاد ﴿ما لا تَفعَلُونَ﴾، إذِ انهزمتم بأُحُد؟ ٣ ـ ٤ ـ ﴿كَبُرَ﴾: عظُمَ ﴿مَقْتًا﴾: تمييزٌ ﴿عِندَ اللهِ أن تَقُولُوا﴾: فاعلُ «كبُر» ﴿ما لا تَفعَلُونَ. إنَّ اللهَ يُحِبُّ﴾: يَنصر ويُكرم ﴿الَّذِينَ يُقاتِلُونَ في سَبِيلِهِ صَفًّا﴾: حالٌ أي: صافّين ﴿كأنَّهُم بُنيانٌ مَرصُوصٌ﴾: مُلزَقٌ بعضُه إلى بعض ثابتٌ.

سُورَةُ الصَّفِّ

قولُـهُ: (بأُحُـدٍ) رويَ أنَّ المسـلمينَ قالـوا: لـو عَلِمنـا أحبَّ الأعمالِ إلـى اللهِ لبَذَلنا فيه أموالَنا وأنفُسَنا، فأنـزَلَ اللهُ: ﴿إِنَّ اللَّـهَ يُحِـبُّ الَّذِيـنَ يُقَاتِلُـونَ فِي سَـبِيلِهِ﴾ [الصف: ٤] فولَّـوا يومَ أحـدٍ؛ فنزلَتْ[١].

قولُهُ: (تَمييزٌ) والمقتُ: أشدُّ الغضبِ[٢].

قولُهُ: (أي: صَافِّينَ) أو مصطفِّينَ، مصدرٌ وُصفَ به.

---

(١) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٤٢٦) ونسب القول للمفسرين.

وروى الترمذي (٣٣٠٩)، والحاكم في «المستدرك» (٢٣٨٤) عن أبي سلمة، عن عبد الله بن سلام، قال: قعدنا نفر من أصحاب رسول الله ﷺ فتذاكرنا، فقلنا: لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله لعملناه، فأنزل الله تعالى ﴿سبح لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون﴾، قال عبد الله بن سلام: «فقرأها علينا رسول الله ﷺ».

(٢) كذا في الأصول، وفي التفاسير: «البغض»، إلا أنه جاء في «البحر المحيط في التفسير» (٩/ ٣٧): المقت: أشد الاحتقار والبغض والغضب.

٥ ـ ﴿وَ﴾ اذكرْ ﴿إذ قالَ مُوسَى لِقَومِهِ: يا قَومِ، لِمَ تُؤذُونَنِي﴾ ـ قالوا: «إنه آدَرُ»، أي: مُنتفِخُ الخُصيةِ. وليس كذلك، وكذّبوه ـ ﴿وقَد﴾: للتحقيق ﴿تَعلَمُونَ أنّي رَسُولُ اللهِ إلَيكُم﴾ الجملة حال، والرسولُ يُحترم؟ ﴿فلَمّا زاغُوا﴾: عدلوا عن الحقّ بإيذائه ﴿أزاغَ اللهُ قُلُوبَهُم﴾: أمالَها عن الهُدى على وَفق ما قدّره في الأزل ـ ﴿واللهُ لا يَهدِي القَومَ الفاسِقِينَ﴾: الكافرين في عِلمه ـ ٦ ـ ﴿وَ﴾ اذكرْ ﴿إذ قالَ عِيسَى بنُ مَريَمَ: يا بَنِي إسرائيلَ﴾ ـ لَم يقلْ: «يا قومِ» لأنه لم يكن له فيهم قرابة ـ ﴿إنّي رَسُولُ اللهِ إلَيكُم مُصَدِّقًا لِما بَينَ يَدَيَّ﴾: قبلي ﴿مِنَ التَّوراةِ، ومُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يأتِي مِن بَعدِي، اسمُهُ أحمَدُ﴾. قال تعالى: ﴿فلَمّا جاءَهُم﴾: جاء أحمدُ الكُفّارَ ﴿بالبَيِّناتِ﴾: الآيات والعلامات ﴿قالُوا: هذا﴾ أي: المجيء به ﴿سِحرٌ﴾ ـ وفي قِراءة: «ساحِرٌ» أي: الجائي به ـ ﴿مُبِينٌ﴾: بيّنٌ. ٧ ـ ﴿ومَن﴾ أي: لا أحدَ ﴿أظلَمُ﴾ أشدّ ظُلمًا ﴿مِمَّنِ افتَرَى علَى اللهِ الكَذِبَ﴾ بنِسبةِ الشريك والولد إليه، ووصفِ آياته بالسِّحر، ﴿وهُوَ يُدعَى إلَى الإسلامِ؟ واللهُ لا يَهدِي القَومَ الظّالِمِينَ﴾: الكافرين.

قولُهُ: (وكَذَّبُوهُ) وعصَوهُ.

قولُهُ: (حَالٌ) مقرِّرةٌ للإنكارِ، فإنَّ العلمَ بنبوَّتِهِ يوجبُ تعظيمَهُ ويمنعُ إيذاءهُ.

قولُهُ: (أَمَالَهَا) وصَرفَها؛ أي: زادَ زَيغَها عن قَبولِ الحقِّ، والميلِ إلى الصَّوابِ.

قولُهُ: (الكَافِرِينَ) هدايةً موصلةً إلى معرفةِ الحقِّ، أو إلى الجنَّةِ.

قولُهُ: (لَمْ يَقُلْ) قالَ البيضاويُّ[١]: ولعلَّهُ لم يقُلْ [يا قوم] كما قالَ موسى، إذ لا نسبَ له فيهم؛ يعني: مِن جانبِ الأبِ، فإنَّهُ هو المُعتبَرُ في النَّسبِ، وأمَّا قولُ الشَّيخِ[٢]: (لأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ فِيهِم قَرَابَةٌ) غيرُ صحيحٍ؛ لأنَّهُ من بني إسرائيلَ بلا شبهةٍ.

قولُهُ: (جَاءَ أَحمَدُ) أو عيسَى.

قولُهُ: (أي: المَجِيءُ بِهِ) أو الجائي به، وتسميتُهُ سحراً للمبالغةِ.

قولُهُ: (وَفِي قِرَاءَةٍ) لحمزةَ والكسائيِّ[٣].

قولُهُ: (ووَصْفِ آيَاتِهِ) وتكذيبِ أنبيائِهِ.

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ٢٠٨).

(٢) العلامة المحلي.

(٣) انظر: «العنوان في القراءات السبع» (ص: ١٩٠).

٨ ـ ﴿يُرِيدُونَ لِيُطفِئُوا﴾ ـ منصوب بـ «أن» مُقدّرة، واللام: مزيدة ـ ﴿نُورَ اللهِ﴾: شرعَه وبراهينه ﴿بِأفواهِهِم﴾: بأقوالهم: إنه سِحرٌ وشِعر وكِهانة، ﴿واللهُ مُتِمٌّ﴾: مُظهرٌ ﴿نُورَهُ﴾، وفي قراءة بالإضافة، ﴿ولَو كَرِهَ الكافِرُونَ﴾ ذلك. ٩ ـ ﴿هُوَ الَّذِي أرسَلَ رَسُولَهُ بِالهُدَى ودِينِ الحَقِّ لِيُظهِرَهُ﴾: يُعليَه ﴿علَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾: جميع الأديان المُخالفة له، ﴿ولَو كَرِهَ المُشرِكُونَ﴾ ذلك.

١٠ ـ ﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا، هَل أدُلُّكُم علَى تِجارةٍ تُنجِيكُم﴾ ـ بالتخفيف والتشديد ـ ﴿مِن عَذابٍ ألِيمٍ﴾: مُؤلم؟ فكأنهم قالوا: نعم. ١١ ـ فقال: ﴿تُؤمِنُونَ﴾: تدومون على الإيمان ﴿بِاللهِ ورَسُولِهِ، وتُجاهِدُونَ في سَبِيلِ اللهِ بِأموالِكُم وأنفُسِكُم ـ ذلِكُم خَيرٌ لَكُم، إن كُنتُم تَعلَمُونَ﴾ أنه خير فافعلوه، ١٢ ـ ١٣ ـ ﴿يَغفِرْ﴾: جوابُ شرط مُقدّر، أي: إن تفعلوه يغفرْ ﴿لَكُم ذُنُوبَكُم، ويُدخِلْكُم جَنّاتٍ تَجرِي مِن تَحتِها الأنهارُ ومَساكِنَ طَيِّبَةً في جَنّاتِ عَدنٍ﴾: إقامةٍ، ....

قولُهُ: (واللَّامُ مَزِيدَةٌ) أو يُريدونَ الافتراءَ.

قولُهُ: (شَرعَهُ) يعني: دينَهُ، أو كتابَهُ، أو حجَّتَهُ بطعنِهِم فيه.

قولُهُ: (مُظهِرٌ) ومُبلِغٌ غايتَهُ بنشرِهِ وإعلائِهِ.

قولُهُ: (وفِي قِرَاءَةٍ) لمكّيٍّ وكوفيٍّ غيرُ شعبةَ(١).

قولُهُ: (ذلِكَ) أي: إرغاماً لهم.

قولُهُ: (لِيُعلِيَهُ) وليغلِّبَهُ.

قولُهُ: (ذَلِكَ) لما فيه مِن محضِ التَّوحيدِ، وإبطالِ الشِّركِ.

قولُهُ: (والتَّشدِيدِ) شاميٌّ(٢).

قولُهُ: (فَقَالَ) استئنافاً مبيِّناً للتِّجارةِ، وهو الجمعُ بين الإيمانِ والجهادِ المؤدِّي إلى كمالِ عزِّهِم، والمرادُ به: الأمرُ، وإنَّما جيء بلفظِ الخبرِ؛ إيذاناً بأنَّ ذلك ممَّا لا يُترَكُ.

قولُهُ: (جَوَابُ شَرطٍ) أو جوابٌ للأمرِ المدلولِ عليهِ بلفظِ الخبرِ.

قولُهُ: (مُقَدَّرٍ) دلَّ عليهِ الكلامُ.

قولُهُ: (إنْ تَفعَلُوهُ) أي: ما ذكرَ من الإيمانِ والجهادِ، أو إن تُؤمِنوا.

(١) قال في «السبعة في القراءات» (ص: ٦٣٥): قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم: ﴿متمُّ نورِه﴾ مضافاً، وقرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر وأبو بكر عن عاصم: (متمٌّ نورَه) بالتنوين وفتح الراء.

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٦٣٥).

﴿ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ، وَ﴾ يُؤتِكم نعمةً ﴿أُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا، نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ـ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بالنصر والفتح.

١٤ ـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، كُونُوا أَنصَارًا لِلَّهِ﴾: لِدِينه ـ وفي قراءة بالإضافة ـ ﴿كَمَا﴾ المعنى: كما كان الحواريّون كذلك الدالّ عليه: ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ: مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ أي: مَن الأنصار الذين يكونون معي مُتوجّهًا إلى نُصرة الله؟ ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ: نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ﴾. والحواريّون أصفياءُ عِيسَى وهم أوّل من آمن به، وكانوا اثني عشَرَ رجلاً، من الحَوَر، وهو البياض الخالص. وقيل: كانوا قصّارين يُحوّرون الثِّيابَ، أي: يُبيّضونها. ﴿فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ بعِيسَى، وقالوا: إنه عبد الله، رُفِعَ إلى السماء. ﴿وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ﴾ لقولهم: إنه ابن الله، رَفعه إليه. فاقتتلت الطائفتان، ﴿فَأَيَّدْنَا﴾: قوّينا ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ من الطائفتين ﴿عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾: الطائفة الكافرة، ﴿فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾: غالِبينَ.

قولُهُ: (يُؤتِكُم) أو تحبُّونَ، أو لكُم إلى هذهِ النِّعمةِ المذكورةِ نعمةٌ أخرى محبوبةٌ، وفي ﴿تُحِبُّونَهَا﴾ تعريضٌ بأنَّهم يؤثِرونَ العاجلَ على الآجلِ، كذا قالَهُ القاضي[١] وصاحبُ المداركِ[٢]، وهو غريبٌ منهما، إذِ المحبوبةُ مفسَّرةٌ بالنَّصرِ والفتحِ، وهو محبوبٌ دينيٌّ وأخرويٌّ، ولو كانَ متضمِّناً للغنيمةِ؛ فهي إنَّما كانوا يحبُّونَها ليستَعينوا بها على العُقْبى، ويتقَوَّوا على الأعداءِ، فنعمَ المالُ الصَّالحُ للرَّجلِ الصَّالحِ، أو مبتدأٌ خبرُه: ﴿نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ وهو على الأوَّلِ خبرُ محذوفٍ، وعلى الثَّاني بدلٌ أو بيانٌ.

قولُهُ: (بالنَّصرِ) عطفٌ على: «قُلْ» مقدَّراً قبلَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، ويمكنُ أن يكونَ مِن بابِ الالتفاتِ مِن المؤمنينَ إلى رئيسِهِم، كأنَّه قالَ: وبشِّرِ الَّذينَ فعَلوا بما أُمِروا، وحُذِفَ المبشَّرَ به لإفادةِ العمومِ، أو بـ«مَا لا عينٌ رأَتْ، ولا أذنٌ سمعَتْ، ولا خطرَ على قلبِ بشرٍ»[٣].

قولُهُ: (وَفِي قِرَاءَةٍ) للشَّاميِّ والكوفيِّ[٤].

قولُهُ: (كذلِكَ) أي: أنصارُ عيسى حينَ قالَ لهم عيسى: ﴿مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾.

قولُهُ: (الدَّالُّ عَلَيهِ) أي: على هذا التَّقديرِ.

قولُهُ: (مِنَ الحَوَرِ) أي: مأخوذٌ منه.

قولُهُ: (الكَافِرَةِ) بالحجَّةِ، أو الحربِ.

قولُهُ: (غَالِبِينَ[٥]) أي: فصاروا غالبينَ، واللهُ أعلمُ.

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ٢٠٩). (٢) انظر: «مدارك التنزيل» (٣/ ٤٧٧).

(٣) جاء ذلك فيما رواه البخاري (٧٤٩٨)، ومسلم (٢٨٢٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) انظر: «العنوان في القراءات السبع» (ص: ١٩٠).

(٥) في الأصول: «عالين»، والصواب ما أثبته من «الجلالين» وهو موافق للشرح.

سورة الصف

وتسمى أيضاً سورة الحواريين، وسورة عيسى عليه السلام، وهي مدنيَّةٌ في قول الجمهور، وروي ذلك عن ابن الزبير وابن عباس والحسن وقتادة وعكرمة ومجاهد. وقال ابن يسار: مكية، وروي ذلك عن ابن عباس ومجاهد أيضاً، والمختار الأول، ويدلُّ له ما أخرجه الحاكم وغيره عن عبد الله بن سلام قال: قعدنا نفراً من أصحاب رسول الله ﷺ فتذاكرنا، فقلنا: لو نعلم أيّ الأعمال أحبُّ إلى الله تعالى لَعملناه[1]. فأنزل الله سبحانه: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢﴾ قال عبد الله: فقرأها علينا رسول الله ﷺ حتى ختمها، وروي هذا الحديث مسلسلاً يقرؤها علينا، وهو حديثٌ صحيحٌ على شرط الشيخين، أخرجه الإمام أحمد والترمذيُّ[2] وخلقٌ كثيرٌ، حتى قال الحافظ ابن حجر[3]: إنه أصحُّ مسلسلٍ يُروى في الدنيا، إن وقع في المسلسلات مثله في مزيد عُلوِّه.

وكذا ما روي في سبب النزول عن الضحاك من أنه قولُ شبابٍ من المسلمين: فعلنا في الغزو كذا. ولم يفعلوا[4]. وما روي عن ابن زيد من أنه قولُ المنافقين للمؤمنين: نحن منكم ومعكم. ثم يظهر من أفعالهم خلاف ذلك[5].

---

(١) جاء في هامش الأصل: جاء في بعض الروايات أنه قال أناس: وددنا أن نعرف أحبَّ الأعمال إلى ربنا حتى نعنى فيه. ففرض الجهاد، وأَعْلَم الله بحب المجاهدين، فكرهه قوم وفرَّ بعضهم في أحد فنزلت. اهـ، وهو في البحر المحيط ٨/ ٢٦١.

(٢) الحاكم ٢/ ٤٨٦-٤٨٧، وأحمد (٢٣٧٨٩)، والترمذي (٣٣٠٩).

(٣) في فتح الباري ٨/ ٤١٩.

(٤) تفسير الطبري ٢٢/ ٦٠٨- ٦٠٩بنحوه.

(٥) تفسير الطبري ٢٢/ ٦٠٩.

وآيها أربعَ عشرةَ آيةً بلا خلاف. ومناسبتها لما قبلها اشتمالُها على الحثِّ على الجهاد والترغيب فيه، وفي ذلك من تأكيد النهي عن اتخاذ الكفار أولياء الذي تضمَّنه ما قبلُ ما فيه.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾﴾ الكلامُ فيه كالكلام المارِّ في نظيره. والنداءُ بوصف الإيمان في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾﴾ على ما عدا القول الأخير في سبب النزول ظاهرٌ، وعليه قيل: هو للتهكُّم بأولئك المنافقين وبإيمانهم، و«لِمَ» مركَّبةٌ من اللام الجارَّة، و«ما» الاستفهامية، قد حُذِفَ أَلِفُها ـ على ما قال النحاة ـ للفرق بين الخبر والاستفهام، ولم يعكس حرصاً على الجواب. وقيل: لكثرة استعمالهما معاً، فاستحقَّ التخفيف. وإثباتُ الكثرة المذكورة أمرٌ عسيرٌ.

وقيل: لاعتناقهما في الدلالة على المستفهَم عنه. وبُيِّنَ بأنَّ قولك: لم فعلتَ؟ مثلاً، المستفهَم عنه عِلَّةُ الفعل، فهو كالمركَّب من العلة والفعل، والعلةُ مدلولُ اللام، والفعل مدلول «ما» لأنها بمعنى: أيّ شيء، والمفيدُ لذلك المجموع، وعند عدم الحرف، المسؤولُ عنه الفعل وحده. وهو كما ترى.

والمعنى: لأيِّ شيءٍ تقولون ما لا تفعلونه من الخير والمعروف؟! على أنَّ مدارَ التوبيخ في الحقيقة عدمُ فعلهم، وإنما وُجِّهَ إلى قولهم؛ تنبيهاً على تضاعف معصيتهم ببيان أنَّ المنكر ليس ترك الخير الموعود فقط، بل الوعد أيضاً، وقد كانوا يحسبونه معروفاً، ولو قيل: لِمَ لا تفعلون ما تقولون، لفُهِمَ منه أنَّ المنكرَ هو تركُ الموعود.

﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾ بيانٌ لغاية قُبح ما فعلوه، و«كَبُرَ» من باب «بِئْسَ» فيه ضميرٌ مبهمٌ مفسَّرٌ بالنكرة بعده، و«أن تقولوا» هو المخصوص بالذَّمِّ. وجُوِّزَ أن يكون في «كَبُرَ» ضميرٌ يعود على المصدر المفهوم من

قوله سبحانه: ﴿لِمَ تَقُولُونَ﴾ أي: كَبُرَ هو ـ أي: القولُ ـ مقتاً، و«أن تقولوا» بدلٌ من المضمَر، أو خبرُ مبتدأ محذوف.

وقيل: قُصِدَ فيه كثر التعجُّب[1]، من غير لفظه، كما في قوله:

وجارة جَسَّاسٍ أَبَأْنا بنابِها كُلَيباً غلَتْ نابٌ كُلَيبٌ بَواؤها[2]

ومعنى التعجُّب: تعظيمُ الأمر في قلوب السامعين؛ وأُسند إلى «أن تقولوا» ونصب «مقتاً» على تفسيره دلالة على أنَّ قولهم ما لا يفعلون مَقْتٌ خالصٌ لا شَوْبَ فيه؛ لفرط تمكُّن المقتِ منه.

واختير لفظُ المقتِ لأنه أشدُّ البغض وأبلغه؛ ومنه نكاحُ المقتِ: لتزوُّجِ الرجل امرأةَ أبيه، ولم يقتصرْ على أنْ جَعَلَ البُغْضَ كبيراً، حتى جعل أشدّه وأفحشه، وعند الله أبلغ من ذلك؛ لأنه إذا ثبت كُبْرُ مَقْته عند الله تعالى الذي يُحقَرُ دونه سبحانه كلُّ عظيم، فقد تمَّ كبْره وشِدَّته، وانزاحت عنه الشكوك.

وتفسيرُ المقت بما سمعتَ، ذهب إليه غيرَ واحدٍ من أهل اللغة. وقال ابن عطية: المقتُ: البُغض من أجل ذنبٍ أو ريبةٍ أو دناءةٍ يصنعها الممقوت[3].

وقال المبرِّد: رجلٌ ممقوتٌ ومقيتٌ، إذا كان يُبغضه كلُّ واحد[4].

واستدلَّ بالآية على وجوب الوفاء بالنذر. وعن بعض السلف أنه قيل له: حدِّثنا. فسكت، فقيل له: حدثنا. فقال: وما تأمرونني أن أقول ما لا أفعل، فأستعجل مَقْتَ الله عزَّ وجلَّ؟!

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤﴾ بيانٌ لما هو مرضيٌّ عنده سبحانه وتعالى، بعد بيان ما هو ممقوتٌ عنده

---

(١) عبارة أبي السعود ٨/ ٢٤٢ (والكلام منه): وقيل: قصد فيه التعجب، دون: كثر، ولعله الأنسب.

(٢) البيت في المستقصى في أمثال العرب ١/ ١٧٨، والكشاف ٤/ ٩٧، وسلف ١٩/ ٦.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٣٠١.

(٤) البحر المحيط ٨/ ٢٦١.

جلَّ شأنه، وظاهره يُرجِّحُ أنَّ ما قالوه عبارة عن الوعد بالقتال، دون ما يقتضيه ما روي عن الضحاك أو عن ابن زيد في سبب النزول، ويقتضي أنَّ مناطَ التوبيخ هو إخلافهم، لا وعدُهم، و«صَفّ» مصدرٌ وَقَعَ موقعَ اسم الفاعل، أو اسم المفعول، ونَصْبه على الحال من ضمير «يقاتلون»، أي: صافِّين أنفسَهم أو مصفوفين. و«كأنهم» إلخ حالٌ من المستكنِّ في الحال الأولى، أي: مُشَبَّهين في تلاصقهم ببنيان.. إلخ، وهذا ما عناه الزمخشريُّ بقوله: هما - أي: «صفًّا» و«كأنهم» إلخ - حالان متداخلان[1]. وقول ابن المنيِّر[2]: إنَّ معنى التداخل أنَّ الحالَ الأولى مشتملةٌ على الحال الثانية، فإنَّ هيئةَ الاتصاف هي هيئةُ الارتصاص خلاف المعروف من التداخل في اصطلاح النحاة. وجُوِّزَ أن يكون حالاً ثانيةً من الضمير.

وقال الحوفيُّ: هو في موضع النعت لـ «صفًّا». وهو كما ترى.

والمرصوص - على ما قال الفراء[3] ومنذر بن سعيد - هو المعقود بالرصاص. ويراد به المُحْكَم، وقال المبرِّد: رصصتُ البناء، لَاأَمْت بين أجزائه وقاربته حتى يصيرَ كقطعةٍ واحدةٍ، ومنه الرصيص: وهو انضمام الأسنان.

والظاهر أنَّ المرادَ تشبيههم في الْتِحَامِ بعضهم ببعضٍ بالبنيان المرصوص من حيث إنهم لا فُرْجةَ بينهم ولا خَلَل، وقيل: المراد استواءُ نيَّاتهم في الثبات حتى يكونوا في اجتماع الكلمة كالبنيان المرصوص. والأكثرون على الأول.

وفي «أحكام القرآن»: فيه استحبابُ قيام المجاهدين في القتال صفوفاً كصفوف الصلاة، وأنه يُستحبُّ سَدُّ الفُرَج والخَلَل في الصفوف، وإتمام الصَّفِّ الأول فالأول، وتسويةُ الصفوف: عدمُ تقدُّم بعضٍ على بعضٍ فيها.

وقال ابن الفرس: استدلَّ به بعضُهم على أنَّ قتالَ الرَّجَّالة أفضلُ من قتال الفرسان؛ لأنَّ التراصَّ إنما يمكن منهم، ثم قال: وهو ممنوع[4]. انتهى.

---

(١) الكشاف ٤/ ٩٧.
(٢) الانتصاف بهامش الكشاف ٤/ ٩٧.
(٣) في معاني القرآن له ٣/ ١٥٣.
(٤) الإكليل في استنباط التنزيل للسيوطي (ويسميه المصنف: أحكام القرآن) ص٢٦٢.

ثم إنَّ القتال على هذه الهيئة اليوم من أصول العساكر المحمدية النظامية، لا زالت منصورةً مؤيَّدةً بالتأييدات الربانية، وأنت تعلمُ أنَّ للوسائل حُكم المقاصد، فما يُتوصَّلُ به إلى تحصيل الاتصاف بذلك، مما لا ينبغي أن يُتكاسل في تحصيله.

وقرأ زيد بن عليٍّ: «يُقاتَلون» بفتح التاء، وقرئ: «يُقتَّلون»[1].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى﴾ كلامٌ مستأنفٌ مقرِّرٌ لما قبله من شناعة ترك القتال، و«إذ» منصوبٌ على المفعولية بمُضْمَرٍ خُوطب به سَيِّدُ المخاطبين ﷺ بطريق التلوين، أي: اذكرْ لهؤلاء المُعْرِضين عن القتال وقتَ قول موسى عليه السلام لبني إسرائيل حين نَدَبهم إلى قتال الجبابرة بقوله: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٢١] فلم يمتثلوا لأمره عليه السلام، وعَصَوْه أشدَّ عصيان حيث قالوا: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٢-٢٤] وأصرُّوا على ذلك كلَّ الإصرار، وآذوه عليه السلام كلَّ الأذية، فوبَّخهم على ذلك بقوله: (يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى) بالمخالفة والعصيان فيما أمرتكم به ﴿وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ جملةٌ حاليةٌ مؤكِّدةٌ لإنكار الإيذاء ونفي سببه.

و«قد» لتحقيق العلم، لا للتقليل ولا للتقريب؛ لعدم مناسبة ذلك للمقام، وصيغةُ المضارع للدلالة على الاستمرار، أي: والحالُ أنكم تعلمون علماً قطعيًّا مستمرًّا بمشاهدة ما ظهر على يدي من المعجزات الباهرة التي معظمها إهلاكُ عدوِّكم وإنجاؤكم من مَلَكَتِهِ أني رسول الله إليكم لأُرشدكم إلى خيرَي الدنيا والآخرة، ومن قضية علمكم بذلك أن تبالغوا في تعظيمي وتسارعوا إلى طاعتي.

﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟﴾ أي: أَصرُّوا على الزَّيغ والانحراف عن الحقِّ الذي جاء به عليه السلام، واستمرُّوا عليه ﴿أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ أي: صَرفَها عن قبول الحقِّ والميل إلى الصواب؛ لصَرْفِ اختيارهم نحو العمى[2] والضلال.

(١) الكشاف ٤/ ٩٧، والبحر ٨/ ٢٦١.
(٢) في إرشاد العقل السليم ٨/ ٢٤٣ والكلام منه: الغي.

وقيل: أي: فلما زاغوا في نفس الأمر وبمقتضى ما هم عليه فيها، أزاغ الله تعالى في الخارج قلوبهم؛ إذ الإيجادُ على حسب الإرادة، والإرادةُ على حَسَب العلم، والعلمُ على حَسَب ما عليه الشيءُ في نفس الأمر.

وعلى الوجهين لا إشكالَ في الترتيب.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ۝٥﴾ اعتراضٌ تذييليٌّ مقرِّرٌ لمضمون ما قبله من الإزاغة، ومُؤْذِنٌ بعِلَّته، أي: لا يهدي القومَ الخارجين عن الطاعة ومنهاجِ الحقِّ، المُصِرِّينَ على الغواية، هدايةً موصِلةً إلى البُغية، وإلا فالهدايةُ إلى ما يُوصِلُ إليها شاملةٌ للكلِّ، والمراد بهم إما المذكورونَ خاصةً والإظهارُ في مقام الإضمار لِذَمِّهم بالفسق وتعليلِ عدم الهداية به، أو جنس الفاسقين، وهم داخلون في حكمهم دخولاً أوليًّا، قيل: وأيًّا ما كان فهو ناظرٌ إلى ما في قوله تعالى: ﴿فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٥] وقوله سبحانه: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٦].

هذا، وقيل: «إذ» ظرفٌ متعلِّقٌ بفعلٍ مقدَّرٍ يدلُّ عليه ما بعده، كـ: زاغوا ونحوه، والجملةُ معطوفةٌ على ما قبلها عَطْفَ القصة على القصة.

وذهب بعضهم إلى أنَّ إيذاءهم إياه عليه السلام بما كان من انتقاصه وعَيبه في نفسه، وجحودِ آياته وعصيانه فيما تعود إليهم منافعه، وعبادتهم البقر، وطَلَبهم رؤيةَ الله سبحانه جَهْرةً، والتكذيب الذي هو حقُّ الله تعالى وحقُّه عليه السلام، وما ذُكر أولاً هو الذي تقتضيه جزالةُ النَّظْم الكريم ويرتضيه الذوق السليم.

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ إما معطوفٌ على «إذ» الأولى، معمولٌ لعاملها، وإما معمولٌ لمضمرٍ معطوف على عاملها: ﴿يَابَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ولعلَّه عليه السلام لم يقل: «يا قومي» كما قال موسى عليه السلام، بل قال: «يا بني إسرائيل» لأنه ليس له النسبُ المعتاد، وهو ما كان من قِبَل الأب فيهم، أو إشارةٌ إلى أنه عاملٌ بالتوراة، وأنه مثلهم في أنه من قوم موسى عليه السلام؛ هَضْماً لنفسه بأنه لا أتباعَ له ولا قوم، وفيه من الاستعطاف ما فيه، وقيل: إنَّ الاستعطاف بما ذُكر؛ لما فيه من التعظيم، وقد كانوا يفتخرون بنِسْبَتهم إلى إسرائيل عليه السلام.

﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ﴾ أي: مُرسَلٌ منه تعالى إليكم حالَ كوني مُصدِّقاً، فَنَصْبُ «مصدِّقاً» على الحال من الضمير المستتر في «رسول» وهو العامل فيه، و«إليكم» متعلِّقٌ به، وهو ظرفٌ لغو لا ضميرَ فيه ليكونَ صاحبَ حال، وذكر هذا الحال لأنه من أقوى الدواعي إلى تصديقهم إياه عليه السلام.

وقوله تعالى: ﴿وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي﴾ معطوفٌ على «مصدِّقاً»، وهو داعٍ أيضاً إلى تصديقه عليه السلام من حيث إن البشارة بهذا الرسول ﷺ واقعةٌ في التوراة، كقوله تعالى في الفصل العشرين من السّفر الخامس منها: أقبل الله من سيناء، وتجلَّى من ساعير، وظهر من جبال فاران، معه الربوات الأطهار عن يمينه(١).

وقوله سبحانه في الفصل الحادي عشر من هذا السفر: يا موسى إني سأُقيم لبني إسرائيلَ نبيًّا من إخوتهم مثلك، أَجعلُ كلامي في فيه(٢)، ويقول لهم ما آمره فيه، والذي لا يقبلُ قولَ ذلك النبيِّ الذي يتكلَّمُ باسمي أنا، أَنتقمُ منه ومن سِبْطه(٣).

إلى غير ذلك، ويتضمَّنُ كلامه عليه السلام أنَّ دينه التصديقُ بكتب الله تعالى وأنبيائه عليهم السلام جميعاً، مَنْ تقدَّم ومَنْ تأخَّر.

وجملة «يأتي» إلخ في موضع الصفة لـ «رسول»، وكذا جملةُ قوله تعالى: ﴿ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُ﴾ وهذا الاسم الجليل عَلَمٌ لنبيِّنا محمد ﷺ، وعليه قولُ حسان(٤):

صلَّى الإلهُ ومن يَحُفُّ بعرشه والطيبونَ على المبارك أحمدِ

وصحَّ من رواية مالك والبخاري ومسلم والدارمي والترمذي والنسائي عن

---

(١) الكتاب المقدس، سفرتثنية الاشتراع (بركات موسى ص٤١١). وجاء في هامش الأصل: سينا: الجبل الذي كلم الله تعالى عنده موسى عليه السلام، وساعير: جبل الخليل بالشام كان يتعبد فيه المسيح عليه السلام، وفاران: جبل بني هاشم وكان يتعبد فيه نبينا ﷺ.
(٢) في هامش الأصل: إشارة إلى أنه أُمِّيٌّ.
(٣) الكتاب المقدس، سفرتثنية الاشتراع (الأنبياء ص٣٨٦).
(٤) البيت في ديوانه ص٥٨.

جبير بن مطعم[١] قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ لي أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الحاشر الذي يُحشَرُ الناسُ على قدمي، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا العاقب» والعاقبُ: الذي ليس بعده نبيٌّ.

وهو منقولٌ من المضارع للمتكلِّم، أو من أَفعل التفضيل، من الحامدية، وجُوِّزَ أن يكونَ من المحمودية بناءً على أنه قد سُمع «أحمد» اسم تفضيل منها نحو: العَوْدُ أحمد، وإلا فأَفعل من المبنيِّ للمفعول ليس بقياسيٍّ.

وقرئ: «من بعديَ» بفتح الياء[٢].

هذا، وبشارته عليه السلام بنبيِّنا ﷺ مما نطق به القرآن المعجز، فإنكارُ النصارى ذلك ضَرْبٌ من الهذيان، وقولهم: لو وقعتْ لَذُكرت في الإنجيل، الملازَمةُ فيه ممنوعة، وإذا سُلِّمتْ قلنا بوقوعها في الإنجيل، إلا أنَّ جامعيه بعد رَفْعِ عيسى عليه السلام أهملوها اكتفاءً بما في التوراة ومزامير داود عليه السلام وكتب شَعْيا[٣] وحبقوق وإِرْمِياء، وغيرهم من الأنبياء عليهم السلام.

ويجوز أن يكونوا قد ذكروها إلا أنَّ علماءَ النصارى بعدُ ـ حُبًّا لدينهم أو لأمرٍ مّا غير ذلك ـ أسقطوها. كذا قيل.

وأنا أقول: الأناجيلُ التي عند النصارى أربعة: إنجيلُ متَّى من الاثني عشر الحواريين، جمعه باللغة السريانية بأرض فلسطين بعد رَفْع عيسى عليه السلام بثماني سنين، وعِدَّةُ إصحاحاته ثمانيةٌ وستون إصحاحاً. وإنجيل مُرْقُص، وهو من السبعين، جمعه باللغة الفرنجية بمدينة رومية بعد الرفع باثنتي عشرة سنة، وعِدَّةُ إصحاحاته ثمانيةٌ وأربعون إصحاحاً. وإنجيل لُوقا، وهو من السبعين أيضاً، جمعه بالإسكندرية باللغة اليونانية، وعِدَّةُ إصحاحاته ثلاثةٌ وثمانون إصحاحاً. وإنجيل

(١) مالك في الموطأ ٢/ ١٠٠٤، والبخاري (٤٨٩٦)، ومسلم (٢٣٥٤)، والدارمي ٢/ ٣١٧-٣١٨، والترمذي (٢٨٤٠)، والنسائي في الكبرى (١١٥٢٦)، وهو عند أحمد (١٦٧٣٤).

(٢) وهي قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو، وأبي بكر عن عاصم. ينظر التيسير ص٢١٠، والنشر ٢/ ٣٨٧.

(٣) في الأصل: اشعيا. وفي (م): شعياء.

يوحنَّا، وهو حبيبُ المسيح، جمعه بمدينة أُفسس من بلاد رومية بعد الرفع بثلاثين سنة، وعِدَّةُ إصحاحاته في النُّسَخ القِبطية ثلاثةٌ وثلاثون إصحاحاً.

وهي مختلفةٌ، وفيها ما يشهد الإنصاف بأنه ليس كلامَ الله عزَّ وجلَّ ولا كلامَ عيسى عليه السلام، كقصة صَلْبه الذي يزعمونه، ودفنه ورفعه من قبره إلى السماء، فما هي إلا كتواريخ وتراجم فيها شَرْحُ بعض أحوال عيسى عليه السلام، ولادةً ورَفْعاً ونحو ذلك، وبعضُ كلماتٍ له عليه السلام على نحو بعض الكتب المؤلَّفة في بعض الأكابر والصالحين، فلا يضرُّ إهمالها بعضَ الأحوال والكلماتِ التي نطق القرآن العظيم بها ككلامه عليه السلام في المهد، وبشارته بنبيِّنا ﷺ.

على أنَّ في إنجيل يوحنَّا ما هو بشارةٌ بذلك عند مَنْ أنصف، وسَلَكَ الصراطَ السَّويَّ وما تعسَّف، ففي الفصل الخامس عشر منه: قال يسوع المسيح: إنَّ الفارقليط روحُ الحقِّ الذي يُرسله أبي، يُعلِّمكم كلَّ شيء.

وقال يوحنَّا أيضاً: قال المسيح: مَنْ يُحبّني يحفظْ كلمتي، وأبي يُحبُّه، وإليه يأتي، وعنده يتَّخذُ المنزلةَ، كلَّمتكم بهذا لأني لستُ عندكم بمقيم، والفارقليط: روح القدس الذي يُرسله أبي، هو يُعلِّمكم كلَّ شيءٍ، وهو يذكِّركم كلّ ما قلت لكم، أستودعكم سلامي، لا تقلقْ قلوبكم ولا تجزعْ، فإني منطلقٌ وعائدٌ إليكم، لو كنتم تحبُّوني كنتم تفرحون بمُضِيِّي إلى الأب.

وقال أيضاً: إنَّ خيراً لكم أن أنطلقَ لأبي؛ لأني إن لم أذهبْ لم يأتكم الفارقليط، فإذا انطلقتُ أرسلته إليكم، فإذا جاء فهو يُوبِّخُ العالم على الخطيئة، وإنَّ لي كلاماً كثيراً أُريد قوله، ولكنكم لا تستطيعون حَمْله، لكن إذا جاءَ روحُ الحقِّ ذاكَ الذي يُرشدكم إلى جميع الحقِّ؛ لأنه ليس ينطقُ من عنده، بل يتكلَّمُ بما يسمعُ، ويخبركم بكلِّ ما يأتي، ويُعرِّفكم جميعَ ما للأب.

وقال أيضاً: إن كنتم تحبُّوني فاحفظوا وصاياي، وأنا أطلب من الأب أن يُعطيَكم فارقليطاً آخرَ يَثبتُ معكم إلى الأبد، روحَ الحق الذي لم يطقِ العالم أن

يقبلوه؛ لأنهم لم يعرفوه(١)، ولست أَدَعُكُمْ أيتاماً؛ لأني سآتيكم من قريب(٢).

والفارقليط: لفظٌ يُؤذن بالحَمد، وتَعيُّنُ إرادته ﷺ من كلامه عليه السلام مما لا غبار عليه لمن كشف الله تعالى غشاوة التعصُّب عن عينيه، وقد فسَّرهُ بعضُ النصارى بالحمَّاد، وبعضُهم بالحامد، فيكون في مدلوله إشارة إلى اسمه عليه الصلاة والسلام أحمد، وفسَّره بعضُهم بالمخلِّص لقول عيسى عليه السلام: فالله يُرسل مخلِّصاً آخر، فلا يكون ما ذكر بشارة به ﷺ بعنوان الحمد، لكنه بشارة به ﷺ بعنوان التخليص، فيستدلُّ به على ثبوت رسالته ﷺ، وإن لم يستدلّ به على ما في الآية هنا.

وزعم بعضُهم أنَّ الفارقليطَ إشارةٌ إلى أَلسُنٍ ناريةٍ نزلت من السماء على التلاميذ، ففعلوا الآيات والعجائب. ولا يخفى أنَّ وَصْفه بـ «آخَرَ» يأبى ذلك؛ إذ لم يتقدَّمْ لهم غيره.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم﴾ أي: عيسى عليه السلام ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: بالمعجزات الظاهرة ﴿قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٦﴾ مشيرين إلى ما جاء به عليه السلام، فالتذكير بهذا الاعتبار، وقيل: مشيرين إليه عليه السلام.

وتسميته سحراً للمبالغة، ويؤيده قراءة عبد الله وطلحة والأعمش وابن وثاب: «هذا ساحر»(٣). وكون فاعل «جاءهم» ضمير عيسى عليه السلام هو الظاهر؛ لأنه المحدّث عنه، وقيل: هو ضمير «أحمد» عليه الصلاة والسلام، لمَّا فرغ من كلام عيسى تطرَّقَ إلى الإخبار عن أحمد ﷺ، أي: فلما جاء أحمد هؤلاء الكفار بالبينات قالوا.. إلخ.

---

(١) في هامش الأصل: أي لِمَا يغلب عليهم من عبادة الأصنام ونحوها، وفي الحقيقة ما آمن به عليه الصلاة والسلام إلا من أشهده الله تعالى من نبوته ما هدى قلبه إليه ﷺ.

(٢) الكتاب المقدس، إنجيل يوحنا ص٣٣٧-٣٣٩ بنحوه، واستخدمت فيه كلمة: المؤيد، بدل: الفارقليط، ولكن أشير في حاشيته إلى أنها في الأصل اليوناني: الباراقليط.

(٣) وهي قراءة حمزة والكسائي أيضاً، ينظر التيسير ص١٠١، والنشر ٢/٢٥٦، والكشاف ٤/٩٩، والبحر ٨/٢٦٢.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ﴾ أي: أَيُّ الناس أشدُّ ظلماً ممن يُدعى إلى الإسلام الذي يُوصله إلى سعادة الدارين، فيضعُ موضعَ الإجابة الافتراءَ على الله عزَّ وجلَّ بتكذيب رسوله، وتسمية آياته سحراً، فإنَّ الافتراءَ على الله تعالى يعمُّ نفيَ الثابت وإثباتَ المنفي، أي: لا أَظْلَمُ من ذلك، والمراد أنه أظلمُ من كلِّ ظالم.

وقرأ طلحة: «يَدَّعي»[1] مضارع: ادَّعى، مبنيًّا للفاعل، وهو ضميره تعالى، و«يَدَّعي» بمعنى يدعو، يقال: دعاه وادَّعاه نحو لمسه والتمسه. وقيل: الفاعلُ ضمير المفتري، و: ادَّعى، يتعدَّى بنفسه إلى المفعول به، لكنه لَمَّا ضُمِّنَ معنى الانتماء والانتساب عُدِّيَ بـ «إلى»، أي: وهو ينتسب إلى الإسلام مُدَّعياً أنه مُسلمٌ. وليس بذاك. وعنه: «يُدَّعى»[2]، مضارعُ ادَّعى أيضاً، لكنه مبنيٌّ للمفعول، ومعناه كما سبق.

والآيةُ فيمن كذَّب من هذه الأمة على ما يقتضيه ما بعدُ، وهي إن كانت في بني إسرائيل الذين جاءهم عيسى عليه السلام، ففيها تأييدٌ لمن ذهب إلى عدم اختصاص الإسلام بالدين الحق الذي جاء به نبيُّنا ﷺ.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧﴾ أي: لا يُرشدهم إلى ما فيه فلاحهم؛ لسوء استعدادهم وعدم توجُّههم إليه.

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ تمثيلٌ لحالهم في اجتهادهم في إبطال الحقِّ بحالة مَنْ ينفخُ الشمسَ بِفِيْه ليُطفئها، تهكُّماً وسخريةً بهم، كما تقول الناس: هو يُطفئُ عينَ الشمس.

وذهب بعضُ الأَجلَّة إلى أنَّ المرادَ بنور الله: دينه تعالى الحقّ ـ كما روي عن السدي ـ على سبيل الاستعارة التصريحية، وكذا في قوله سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾ و«مُتِمّ» تجريدٌ، وفي قوله تعالى: «بأفواههم» توريةٌ، وعن ابن عباس وابن زيد:

---

(١) القراءات الشاذة ص١٥٥، والمحتسب ٢/ ٣٢١، والبحر ٨/ ٢٦٢.
(٢) المحتسب ٢/ ٣٢١، والمحرر الوجيز ٥/ ٣٠٣، والبحر ٨/ ٢٦٢.

يريدون إبطالَ القرآن وتكذيبه بالقول، وقال ابن بحر: يُريدون إبطالَ حُجَجِ الله تعالى بتكذيبهم، وقال الضحاك: يريدون هلاك الرسول ﷺ بالأراجيف.

وقيل: يريدونَ إبطالَ شأن النبيِّ ﷺ وإخفاءَ ظهوره بكلامهم وأكاذيبهم، فقد روي عن ابن عباس أنَّ الوحيَ أَبْطَأَ أربعينَ يوماً، فقال كعب بن الأشرف: يا معشر يهود: أبشروا، أطفأ الله تعالى نورَ محمد فيما كان ينزل عليه، وما كان ليتمَّ نوره. فحزن الرسولُ ﷺ، فنزلت: «يريدون» إلى آخره[١].

وفي «يريدون ليطفؤوا» مذاهب: أحدها: أنَّ اللامَ زائدةٌ، والفعلَ منصوبٌ بـ «أن» مقدَّرة بعدها، وزِيدت لتأكيد معنى الإرادة، لما في لام العلَّة من الإشعار بالإرادة والقصد، كما زيدت اللام في: لا أبا لك؛ لتأكيد معنى الإضافة.

ثانيها: أنها غيرُ زائدةٍ للتعليل، ومفعول «يريدون» محذوفٌ، أي: يريدون الافتراءَ لأن يطفؤوا.

ثالثها: أنَّ الفعل ـ أعني: «يريدون» ـ حالٌّ محلَّ المصدر، مبتدأ، واللام للتعليل، والمجرور بها خبرٌ، أي: إرادتهم كائنةٌ للإطفاء، والكلامُ نظير: تسمعُ بالمعيديِّ خيرٌ من أن تراه[٢]، من وجه.

رابعها: أنَّ اللام مصدرية، بمعنى «أن» من غير تقدير، والمصدرُ مفعولٌ به، ويكثر ذلك بعد فعل الإرادة والأمر.

خامسها: أنَّ «يريدون» منزَّلٌ منزلةَ اللازم؛ لتأويله بـ : يوقعون الإرادة، قيل: وفيه مبالغةٌ لجعل كلِّ إرادة لهم للإطفاء، وفيه كلامٌ في «شرح المغني» وغيره.

وقرأ العربيان ونافع وأبو بكر والحسن وطلحة والأعرج وابن محيصن: «متمٌّ» بالتنوين «نورَه» بالنصب على المفعولية لـ «مُتِمّ»[٣].

---

(١) ينظر البحر المحيط ٨/ ٢٦٣.

(٢) المستقصى في أمثال العرب ١/ ٣٧٠.

(٣) التيسير ص٢١٠، والنشر ٢/ ٣٨٧، والمحرر ٥/ ٣٠٣، والبحر ٨/ ٢٦٣. والعربيان هما: أبو عمرو وابن عامر.

﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٨)﴾ حالٌ من المستكنِّ في «مُتمّ»، وفيه إشارةٌ إلى أنه عزَّ وجلَّ مُتِمٌّ ذلك إرغاماً لهم.

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ﴾ محمداً ﷺ ﴿بِالْهُدَىٰ﴾ بالقرآن، أو بالمعجزة بجَعْلِ ذلك نفس الهدى مبالغة ﴿وَدِينِ الْحَقِّ﴾ والملة الحنيفيَّة ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ ليُعليه على جميع الأديان المخالفة له، ولقد أنجز الله عزَّ وجلَّ وعده، حيث جعله بحيث لم يبقَ دينٌ من الأديان إلا وهو مغلوبٌ مقهورٌ بدين الإسلام.

وعن مجاهد: إذا نزل عيسى عليه السلام لم يكن في الأرض إلا دينُ الإسلام، ولا يضرُّ في ذلك ما ورد من أنه يأتي على الناس زمانٌ لا يبقى فيه من الإسلام إلا اسمه[(١)]؛ إذ لا دلالةَ في الآية على الاستمرار.

وقيل: المراد بالإظهار الإعلاءُ من حيثُ وضوحُ الأدلة، وسطوعُ البراهين، وذلك أمرٌ مستمرٌّ أبداً.

﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٩)﴾ ذلك؛ لِمَا فيه من محض التوحيد وإبطال الشرك.

وقرئ: «هو الذي أرسل نبيَّه»[(٢)].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ﴾ جليلة الشأن ﴿تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠)﴾ يوم القيامة، وقرأ الحسن وابن أبي إسحاق والأعرج وابن عامر: «تُنَجِّيكم» بالتشديد[(٣)].

وقوله تعالى: ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ، كأنه قيل: ما هذه التجارة؟ دُلَّنا عليها. فقيل: تؤمنون.. إلخ، والمضارعُ في الموضعين كما قال المبرِّد وجماعة: خبرٌ بمعنى الأمر، أي: آمنوا وجاهدوا.

---

(١) يشير إلى ماروي من طريق جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جده، عن علي ﷺ مرفوعاً وموقوفاً، أخرجه ابن عدي في الكامل ٤/ ١٥٤٣، والداني في السنن الواردة في الفتن ٣/ ٥٤٥، والبيهقي في الشعب (١٩٠٨) و(١٩٠٩)، وفي إسناده انقطاع.

(٢) الكشاف ٤/ ٩٩.

(٣) التيسير ص٢١٠، والنشر ٢/ ٢٥٩ عن ابن عامر، والكلام من البحر ٨/ ٢٦٣.

ويُؤيِّده قراءةُ عبد الله كذلك[١]، والتعبيرُ به للإيذان بوجوب الامتثال، كأنَّ الإيمانَ والجهاد قد وقعا، فأخبر بوقوعهما، والخطابُ إذا كان للمؤمنين الخُلَّص، فالمراد: تَثبتون وتدومون على الإيمان، أو تجمعون بين الإيمان والجهاد، أي: بين تكميل النفس وتكميل الغير، وإن كان للمؤمنين ظاهراً، فالمراد: تُخلصون الإيمان. وأيًّا ما كان، فلا إشكال في الأمر.

وقال الأخفش: «تؤمنون» إلخ عَطْفُ بيانٍ على «تجارة». وتُعقِّبَ بأنه لا يُتخيَّلُ إلا على تقدير أن يكونَ الأصلُ: أن تؤمنوا، حتى يتقدَّر بمصدر، ثم حذف «أن» فارتفع الفعل، كما في قوله:

ألا أيُّهذا الزاجري أحضرُ الوغى[٢]

يريد: أن أَحْضُرَ. فلما حذف «أن» ارتفع الفعل، وهو قليل.

وقال ابن عطية: «تؤمنون» فعلٌ مرفوعٌ بتقدير: ذلك أنه تؤمنون[٣]. وفيه حَذْفُ المبتدأ و«أنَّ» واسمها وإبقاء خبرها، وذلك على ما قال أبو حيان: لا يجوز[٤].

وقرأ زيد بن عليٍّ: «تؤمنوا» و«تجاهدوا»[٥] بحذف نون الرفع فيهما، على إضمار لام الأمر، أي: لتؤمنوا وتجاهدوا، أو: لتجاهدوا، كما في قوله:

قلتُ لبوَّابٍ على بابها تأذَنْ لنا إنِّي مِنَ احمائها[٦]

وكذا قوله:

---

(١) المحرر ٥/ ٣٠٤، والبحر ٨/ ٢٦٣.

(٢) صدر بيت لطرفة بن العبد، وهو في ديوانه ص٣٢، وتمامه:

وأن أشهد اللذات هل أنتَ مُخلدي

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٣٠٤.

(٤) البحر المحيط ٨/ ٢٦٣.

(٥) الكشاف ٤/ ١٠٠، والبحر المحيط ٨/ ٢٦٣.

(٦) البحر المحيط ٨/ ٢٦٣.

مـحـمـد تَـفْـدِ(١) نـفـسَـكَ كـلُّ نـفـسٍ   إذا مـا خِـفْـتَ مـن أمـرٍ تـبـالا(٢)

وجُوِّزَ الاستئناف، والنونُ حذفت تخفيفاً كما في قراءة: «ساحران تَظَّاهَرَا»(٣) [القصص:٤٨]، وقوله:

ونَـقِّـري مـا شـئـتِ أن تُـنـقِّـري   قـد رُفِـعَ الـفـخُّ فـمـاذا تـحـذري(٤)

وكذا قوله:

أَبـيـتُ أسـري وتـبـيـتـي تَـدلُـكـي   وجهكِ بالعنبر والمِسْكِ الذَّكي(٥)

وأنت تعلم أنَّ هذا الحذفَ شاذٌّ.

﴿ذَلِكُمْ﴾ أي: ما ذكر من الإيمان والجهاد ﴿خَيْرٌ لَكُمْ﴾ على الإطلاق أو من أموالكم وأنفسكم ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾ أي: إن كنتم من أهل العلم؛ إذ الجهلة لا يُعتَدُّ بأفعالهم حتى تُوصَفَ بالخيرية، وقيل: أي: إن كنتم تعلمون أنه خيرٌ لكم كان خيراً لكم حينئذٍ؛ لأنكم إذا علمتم ذلك واعتقدتم(٦)، أحببتم الإيمانَ والجهاد فوق ما تُحبُّون أموالكم وأنفسكم، فتخلصون وتفلحون.

﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ جوابٌ للأمر المدلول عليه بلفظ الخبر، كما في قولهم: اتقى الله تعالى امرؤٌ، فعلَ خيراً يُثَبْ عليه(٧)؛ أو جوابٌ لشرطٍ أو استفهامٍ دلَّ

(١) جاء في هامش الأصل: وجوَّز بعضهم كون: تفد، خبراً بمعنى الأمر وحذف الياء كما في نحو: ﴿وَالَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ [الفجر: ٤]. وأنت تعلم أن حذفها في غير الفواصل والقوافي غير ثبت.

(٢) اختلف في نسبته للأعشى وحسان وأبي طالب، وليس في ديوان أحد منهم، وهو في الكتاب ٣/ ٨، والمقتضب ٢/ ١٣٢، وأمالي ابن الشجري ٢/ ١٥٠، وشرح المفصل ٧/ ٣٥، والخزانة ٩/ ١١. وقوله: تبالا: هو سوء العاقبة، وأصله وبال، فتاؤه مبدلة من الواو. قاله الأعلم كما في الخزانة ٩/ ١٣ وسلف ١٣/ ١١٢.
والبيت سلف ١٣/ ٢٢١.

(٣) في الأصل و(م): يظاهرا. وينظر ما سلف ٢٠/ ٢١٠.

(٤) البيت لطرفة بن العبد، وهو في ديوانه ص٤٦.

(٥) البيت في الخصائص ١/ ٣٨٨، والخزانة ٨/ ٣٣٩ دون نسبة.

(٦) في إرشاد العقل السليم ٨/ ٢٤٥ والكلام منه: واعتقدتموه.

(٧) ينظر ما سلف عند تفسير قوله تعالى: ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾ [الكهف: ٢٦].

عليه الكلام، والتقدير: إن تؤمنوا وتجاهدوا يَغْفِرْ لكم، أو: هل تقبلون أن أدلَّكم؟ أو: هل تتَّجرونَ بالإيمان والجهاد؟ يَغْفِرْ لكم.

وقال الفراء: جوابٌ للاستفهام المذكور، أي: «هل أدلُّكم». وتُعقِّبَ بأنَّ مجردَ الدلالة لا يُوجبُ المغفرة، وأُجيب بأنه كقوله تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [إبراهيم: ٣١] وقد قالوا فيه: إنَّ القولَ لَمَّا كان للمؤمن الراسخ الإيمان، كان مظنةً لحصول الامتثال، فجُعل كالمُحقَّقِ وقوعه، فيقال هاهنا: لما كانت الدلالة مظنة لذلك، نُزِّلتْ منزلةَ المحقَّق، ويؤيِّده: «إن كنتم تعلمون» لأنَّ مَنْ له عقلٌ إذا دَلَّهُ سَيِّدُهُ على ما هو خيرٌ له لا يتركه، وادِّعاءُ الفرق لِمَا ثَمَّة[1] من الإضافة التشريفية، وما هنا من المعاتبة، قيل: غير ظاهر. فتدبَّر.

والإنصافُ أنَّ تخريج الفراء لا يخلو عن بُعدٍ، وأما ما قيل: من أنَّ الجملةَ مستأنفةٌ لبيان أنَّ ذلك خيرٌ لهم، و«يغفر» مرفوعٌ سُكِّنَ آخرُهُ كما سُكِّنَ آخر «أشرب» في قوله:

فاليومَ أشربْ غيرَ مُسْتَحْقِبٍ إثماً من الله ولا واغِلِ[2]

فليس بشيءٍ؛ لما صرَّحوا به من أنَّ ذلك ضرورة.

﴿وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً﴾ أي: طاهرةً زكيةً مستلذَّةً، وهذا إشارةٌ إلى حُسْنها بذاتها، وقوله تعالى: ﴿فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ إشارة إلى حُسْنها باعتبار محلِّها.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذكر من المغفرة وما عُطِفَ عليها ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾ الذي لا فوزَ وراءه.

﴿وَأُخْرَىٰ﴾ أي: ولكم إلى ما ذُكِرَ من النِّعم نعمةٌ أخرى، فـ «أخرى» مبتدأٌ، وهي في الحقيقة صفةٌ للمبتدأ المحذوف، أُقيمت مقامه بعد حذفه، والخبرُ محذوفٌ.

---

(١) ينظر حاشية الشهاب ٨/ ١٩٣.

(٢) البيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص١٢٢، وروايته: أُسقى، بدل: أشرب، مع العلم بأن رواية النحويين وغيرهم كما ذكر المصنِّف، ينظر ما سلف ١١/ ٤٢١.

قاله الفراء، وقوله تعالى: ﴿تُحِبُّونَهَا﴾ في موضع الصفة، وقوله سبحانه: ﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ أي: عاجلٌ، بدلٌ أو عَطْفُ بيان، وجملةُ المبتدأ وخبره قيل: حاليةٌ؛ وفي «الكشف» إنها عَطْفٌ على جواب الأمر ـ أعني: «يغفر» ـ من حيث المعنى، كما تقول: جاهدوا تؤجروا، ولكم الغنيمة.

وفي «تُحبُّونَها» تعييرٌ لهم، وكذلك في إيثار الاسمية على الفعلية، وعَطْفِها عليها، كأنَّ هذه عندهم أثبتُ وأمكنُ، ونفوسهم إلى نَيلها والفوز أسكن.

وقيل: «أخرى» مبتدأٌ خبره «نَصْر». وقال قومٌ: هي في موضع نَصْبٍ بإضمار فِعْل، أي: ويُعطِكم أخرى، وجعل ذلك من باب:

عَلَفْتُها تبناً وماءً بارداً[1]

ومنهم مَنْ قدَّرَ: تُحبُّون أخرى، على أنه من باب الاشتغال، و«نَصْرٌ» على التقديرين خبرُ مبتدأ محذوف، أي: ذلك - أو: هو ـ نصر، أو: مبتدأٌ خبرُهُ محذوف، أي: نَصْرٌ وفَتْحٌ قريبٌ عنده.

وقال الأخفش: هي في موضع جَرٍّ بالعطف على «تجارة». وهو كما ترى.

وقرأ ابن أبي عبلة: «نَصْراً وفتحاً قريباً»[2] بالنصب بـ: أعني مقدَّراً، أو على المصدر، أي: تُنصرون نَصْراً ويُفتَحُ لكم فتحاً، أو على البدلية من «أخرى» على تقدير نَصْبها.

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٣﴾ عَطْفٌ على «قل» مقدَّراً قبل قوله تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا)، وقيل: على «أبشر» مقدَّراً أيضاً، والتقدير: فأبشِرْ يا محمد وبَشِّر.

وقال الزمخشري: هو عَطْفٌ على «تؤمنون» لأنه في معنى الأمر، كأنه قيل: آمنوا وجاهدوا يُثبكم الله تعالى وينصركم، وبَشِّر يا رسول الله المؤمنين بذلك[3].

---

(١) هو في معاني القرآن للفراء ١/ ١٤، والخصائص ١/ ٤٣١، والإنصاف ٢/ ٦١٣، والخزانة ٣/ ١٤٠، وعجزه: حتى شتت همَّالةً عيناها. وسلف ٦/ ٣٢٥.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٣٠٤، والبحر ٨/ ٢٦٤.

(٣) الكشاف ٤/ ١٠١.

وتعقَّبه في «الإيضاح» بأنَّ فيه نظراً؛ لأنَّ المخاطبين في «تؤمنون» هم المؤمنون، وفي «بَشِّر» هو النبيُّ ﷺ، ثم قوله تعالى: «تؤمنون» بيانٌ لما قبله على طريق الاستئناف، فكيف يصحُّ عَطْفُ «بشِّر المؤمنين» عليه[(١)]؟

وأجيب بما خلاصته: أنَّ قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ للنبيِّ ﷺ وأمته، كما تقرَّرَ في أصول الفقه، وإذا فُسِّرَ بـ «آمنوا» و«بَشِّر»، دَلَّ على تجارته عليه الصلاة والسلام الرابحة وتجارتهم الصالحة، وقدّم «آمنوا» لأنه فاتحةُ الكُلِّ، ثم لو سلِّم، فلا مانعَ من العَطْفِ على جواب السائل بما لا يكون جواباً إذا ناسبه، فيكون جواباً للسؤال وزيادة، كيف وهو داخلٌ فيه، كأنهم قالوا: دُلَّنا يا ربنا، فقيل: آمنوا يكنْ لكم كذا، وبَشِّرهم يا محمدُ بثبوته لهم، وفيه من إقامة الظاهر مقامَ المضمر وتنويعِ الخطاب ما لا يخفى نُبْلُ موقعه، واختاره صاحب «الكشف»، فقال: إنَّ هذا الوجهَ [أَوْلَى][(٢)] من وَجْهِ العطف على «قل» ووَجْهِ العطف على: فأبشر، لخلوِّهما عن الفوائد المذكورة، يعني: ما تضمَّنه الجواب.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾ أي: نَصرةَ دينه سبحانه وعَونَةَ رسوله عليه الصلاة والسلام، وقرأ الأعرج وعيسى وأبو عمرو والحرميان: «أنصاراً لله» بالتنوين[(٣)]، وهو للتبعيض، فالمعنى: كونوا بعضَ أنصاره عزَّ وجلَّ.

وقرأ ابن مسعود على ما في «الكشاف»[(٤)]: «كونوا أنتم أنصار الله»، وفي «موضح» الأهوازي والكواشي: «أنتم» دون «كونوا».

﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: مَنْ جُندي، متوجِّهاً إلى نُصرةِ الله تعالى، ليطابق قوله سبحانه: ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ وقيل: «إلى» بمعنى «مع»، و«نحن أنصار الله» بتقدير: نحن أنصارُ نبيِّ الله، فيحصل التطابق، والأول أولى. والإضافةُ في «أنصاري» إضافةُ أحد المتشاركين إلى الآخر؛

(١) الإيضاح في علوم البلاغة للقزويني ص١٦٠.
(٢) ما بين حاصرتين زيادة يقتضيها السياق، وينظر حاشية الشهاب ٨/ ١٩٤.
(٣) التيسير ص٢١٠، والنشر ٢/ ٣٨٧، والبحر ٨/ ٢٦٤.
(٤) ٤/ ١٠١.

لأنهما لَمَّا اشتركا في نُصْرة الله عزَّ وجلَّ، كان بينهما ملابسةٌ تُصحِّحُ إضافةَ أحدهما للآخر، والإضافةُ في «أنصار الله» إضافةُ الفاعل إلى المفعول، والتشبيهُ باعتبار المعنى؛ إذ المرادُ: قُلْ لهم ذلك كما قال عيسى، وقال أبو حيان: هو على معنى: قلنا لكم كما قال عيسى[1].

وقال الزمخشريُّ: هو على معنى: كونوا أنصار الله، كما كان الحواريون أنصار عيسى حين قال لهم: مَنْ أنصاري إلى الله[2].

وخلاصته على ما قيل: إنَّ «ما» مصدرية، وهي مع صلتها ظرفٌ، أي: كونوا أنصارَ الله وقتَ قولي لكم، ككون الحواريين أنصاره وقتَ قول عيسى، ثم قيل: كونوا أنصاره كوقت قول عيسى هذه المقالة، وجيء بحديث سؤاله عن الناصر وجوابهم، فهو نظير «كاليوم» في قولهم: كاليومَ رجلٌ، أي: كرجلٍ رأيته اليوم، فحذف الموصوف مع صفته، واكتفى بالظرف عنهما؛ لدلالته على الفعل الدالِّ على موصوفه، وهذا من توسُّعاتهم في الظروف.

وقد جُعلت الآية من الاحتباك، والأصل: كونوا أنصارَ الله حين قال لكم النبيُّ ﷺ: مَنْ أنصاري إلى الله، كما كان الحواريون أنصارَ الله حين قال لهم عيسى عليه السلام: مَنْ أنصاري إلى الله، فُحذِفَ من كلٍّ منهما ما دلَّ عليه المذكور في الآخر، وهو لا يخلو عن حسن.

والحواريون: أصفياؤه عليه السلام، والعدول عن ضميرهم إلى الظاهر للاعتناء بشأنهم، وهم أولُ مَنْ آمن به، وكانوا اثني عشر رجلاً فرَّقهم ـ على ما في «البحر»[3] ـ عيسى عليه السلام في البلاد، فمنهم من أرسله إلى رُومِيَة، ومنهم من أرسله إلى بابل، ومنهم من أرسله إلى أفريقية، ومنهم من أرسله إلى أُفسس، ومنهم من أرسله إلى بيت المقدس، ومنهم من أرسله إلى الحجاز، ومنهم من أرسله إلى

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٢٦٤.
(٢) الكشاف ٤/ ١٠١.
(٣) البحر المحيط ٨/ ٢٦٤.

أرض البربر وما حولها، وتعيينُ المرسَلِ إلى كلٍّ فيه[(١)]، ولستُ على ثقةٍ من صحة ذلك، ولا من ضبط أسمائهم، وقد ذكرها السيوطيُّ أيضاً في «الإتقان»[(٢)] فليلتمس ضبطُ ذلك من مظانِّه.

واشتقاق الحواريين من الحَوَر: وهو البياض، وسُمُّوا بذلك لأنهم كانوا قصَّارين، وقيل: للبسهم البياض، وقيل: لنقاء ظاهرهم وباطنهم، وزعم بعضُهم أنَّ ما قيل من أنهم كانوا قصَّارين إشارةٌ إلى أنهم كانوا يُطهِّرون نفوسَ الناس بإفادتهم الدين والعلم، وما قيل: من أنهم كانوا صيَّادين إشارةٌ إلى أنهم كانوا يصطادون نفوسَ الناس من الحيرة ويقودونهم إلى الحقِّ.

وقيل: الحواريون: المجاهدون، وفي الحديث: «لكلِّ نبيٍّ حَوَاريٌّ، وحَواريَّ الزبير»[(٣)]، وفُسِّر بالخاصة من الأصحاب والناصر، وقال الأزهريُّ: الذي أُخْلِصَ ونُقِّيَ من كلِّ عيب[(٤)].

وعن قتادة إطلاقُ الحواريِّ على غيره ﷺ أيضاً، فقد قال: إنَّ الحواريين كلُّهم من قريش: أبو بكر، وعمر، وعليٌّ، وحمزة، وجعفر، وأبو عبيدة بن الجراح، وعثمان بن مظعون، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وعثمان بن عفان، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام رضي الله عنهم أجمعين[(٥)].

﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: بعيسى عليه السلام ﴿وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾ أخرى ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾ وهم الذين كفروا ﴿فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ فصاروا غالبين؛ قال زيد بن علي وقتادة: بالحُجَّة والبرهان، وقيل: إنَّ عيسى عليه السلام حين رُفع إلى السماء، قالت طائفةٌ من قومه: إنه الله سبحانه، وقالت أخرى: إنه

---

(١) أي في البحر المحيط ٨/ ٢٦٤.
(٢) ٢/ ١١٠٤.
(٣) أخرجه أحمد (١٤٢٩٧)، والبخاري (٧٢٦١)، ومسلم (٢٤١٥) من حديث جابر ﷺ، وأخرجه أحمد (٦٨٠) من حديث علي ﷺ، و(١٦١١٣) من حديث عبد الله بن الزبير ﷺ.
(٤) تهذيب اللغة ٥/ ٢٢٩.
(٥) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٢٩٠، والطبري ٢٢/ ٦٢١.

ابن الله ـ تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً ـ رفعه الله عزَّ وجلَّ إليه، وقالت طائفة: إنه عبدُ الله ورسوله، فاقتتلوا، فظهرتِ الفرقتان الكافرتان على الفرقة المؤمنة، حتى بُعث النبيُّ ﷺ فظهرت المؤمنةُ على الكافرتين، وروي ذلك عن ابن عباس. وقيل: اقتتلَ المؤمنون والكفرةُ بعد رَفْعه عليه السلام، فظهر المؤمنون على الكفرة بالسيف، والمشهورُ أنَّ القتالَ ليس من شريعته عليه السلام.

وقيل: المراد: فآمنت طائفةٌ من بني إسرائيلَ بمحمدٍ عليه الصلاة والسلام، وكفرتْ أخرى به ﷺ، فأيَّدنا المؤمنين على الكفرة فصاروا غالبين. وهو خلافُ الظاهر، والله تعالى أعلم.